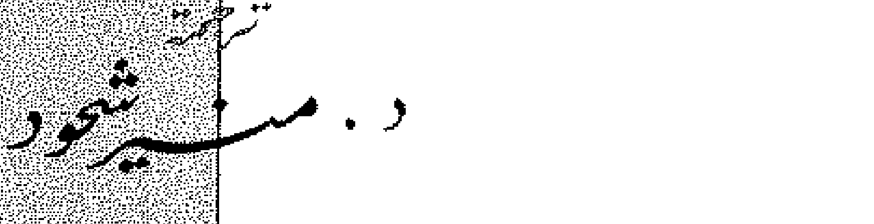
ا . سسل . كون

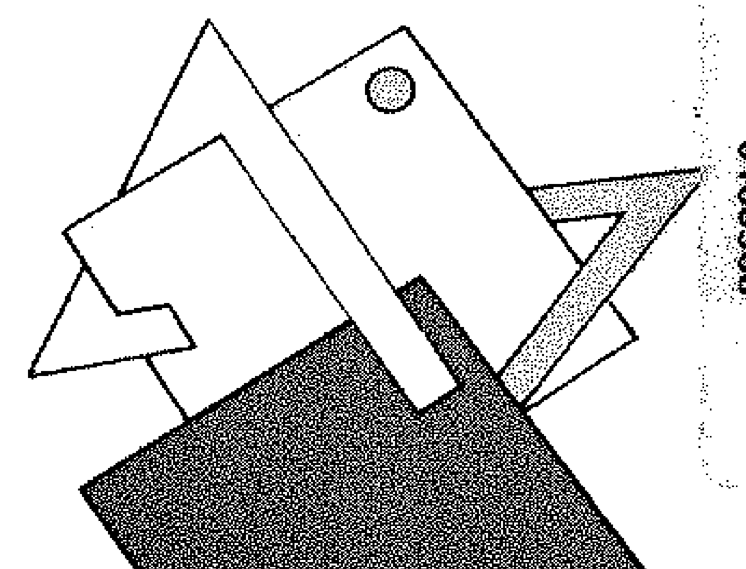
الجنس

من الأسطورة الى العلم



ترجمة

د . منير شحود





الجنس من الأسطورة إلى العلم

* الجنس من الاسطورة إلى العلم .
* المؤلف : إ۔ س۔ كون .
* المترجم : د . منير شحود .
* الطبعة الأولى 1992 .

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع ۔ اللاذقية ص . ب 1018
هاتف 22339 ۔ تيلكس 451086 – Booth – sy

سورية

إ. س. كون



ترجمة: د. منير شحود

الفهرس

1 ـ من الاسطورة إلى العلم . 9

الثمرة المحرَّمة . 11

الرغبات والمركَّبات . 21

من ذكر السوابق (الإذكار) إلى الاستمارة الإحصائية . 28

في البحث عن المشترك . 41

2 ـ الأسس العلمية الطبيعية لعلم الجنس 51

الجنس ومحتَّماته . 52

بيولوجية السلوك الجنسي . 73

من الحيوانات إلى الإنسان . 89

مقدمة المترجم

علم الجنس هو العلم الأصعب ولادة مقارنة بباقي العلوم . فالجنس عند الإنسان ليس موضوعاً بيولوجياً فحسب ، بل علاقة اجتماعية مع شخص آخر ، أو أشخاص آخرين . وبهذا فإن الإنسان يمكن أن يأكل أو يشرب بنفسه ، ولكنه في عملية الجنس سيرتبط بعلاقة صميمية مع شخص آخر ، وبذلك ستنعكس هذه العلاقة على نفسية الشريكين ، وتتحدد بالوقت نفسه بالأعراف والتقاليد الناظمة لحياة المجتمع في مرحلة معينة . هذه الأعراف التي تفرضها ظروف موضوعية ، والتي تمتلك بحد ذاتها قدرة على الاستمرار رغم تغيرات الظروف التي أنتجتها في بعض الأحيان . والجنس، كذلك طرائق تنظيم الحياة الجنسية ، لا يمكن دراسته إلاّ بصورة تاريخية مقارنة ، وهذا ضروري لتجنب تفسير الظواهر الاجتماعية المعقدة بسبب واحد فقط .

تتناول دراسة المؤلف إقامة هيكل متكامل لعلم الجنس في هذا الكتاب ، وفي كتابيه الآخرين : الجنس والثقافة ، علم النفس الجنسي ، وذلك بواسطة جمع المعطيات المتعلقة بهذا العلم من فروع علمية مختلفة . فيبدأ المؤلف أولاً بالمعطيات البيولوجية لتشكل الجنس بمعناه العام ، كجنس مذكر أو مؤنث ، ثم يتناول الأسس العلمية الطبيعية لعلم الجنس ، وعلاقة الجنس بمعناه الخاص (كممارسة جنسية) والعام (كجنس بيولوجي) بثقافة مجتمع معين ، ومقارنة هذه العلاقة بثقافات أخرى . لينتقل بعد ذلك إلى بحث سيكولوجية الجنس والدافع الجنسي والحاجات النفسية التي تتحقق من وراء الإنتماء إلى جنس معين ، أو من الممارسة الجنسية بحد ذاتها . وأخيراً يدرس المؤلف بالتفصيل أحد أهم الشذوذات الجنسية ، وهو الميل الجنسي المثلي أي نحو شخص من نفس الجنس (الجنوسة) .

مثل هذا الكتاب ولادة هذا العلم في الاتحاد السوفياتي . والكاتب يستند إلى أهم المعطيات العلمية العالمية بهذا الصدد ، والتي تصل إلى 400 دراسة وكتاب . كما عمل المؤلف على استخلاص سنن التطور العامة لعلم الجنس وتعميم المعطيات العلمية الخاصة والعمل على النظر بموضوعية والوقوف بوجه شعارات « الثورة الجنسية التي تضخم دور الجنس في المجتمع وعلى صعيد الأفراد من جهة ، وبوجه التيارات الرجعية المتزمتة ، الاجتماعية منها والدينية ، إزاء الجنس والنفاق واللاموضوعية اللذين تتسم بهما هذه المواقف من جهة ثانية .

إننا بأمس الحاجة إلى الدراسة الموضوعية للجنس ، هذا الموضوع الذي يهتم به الجميع بدون استثناء ولكن بدرجات مختلفة ، وتكثر حوله المنشورات ذات الاتجاه التجاري الاستغلالي الرخيص والتي تتغذى من سياسة الصمت المطبق حول الجنس ، ذلك الصمت الذي يقول الكثير بحد ذاته .

لقد استخدمت في ترجمة هذا الكتاب المصطلحات الحديثة وخاصة الطبية منها والتي قد تكون جديدة تماماً على القارىء مثل الجنوسة (الميل الجنسي المثلي) والإيغاف (النشوة الجنسية Orgasm) والكرع (الرغبة الجنسية أو « الليبيدو ») . . . إلخ . إلاّ أنني آثرت في معظم الأحيان ذكر المرادفات الشائعة لبعض المصطلحات ، لتسهيل متابعة الموضوع من قبل القارىء .

بالإضافة إلى القارىء المهتم ، فإن هذا الكتاب يهمُّ خاصة الأطباء النفسيين وأطباء الأمراض النسائية والعاملين في حقول علم النفس والتربية وعلم الاجتماع والإتنوغرافيين (دارسو ثقافات الشعوب) وغيرهم .

وسأكون في غاية السرور إذا كنت قد أضفت في ترجمة هذا الكتاب شيئاً ما للمكتبة العربية بهذا الخصوص .

د . منير شحود
دكتوراة في تشريح الإنسان
مدرس التشريح في كلية الطب البشري من جامعة تشرين

من الأسطورة إلى العلم

1 ـ الثمرة المحرّمة .

إذا طرحنا السؤال التالي : ما هو علم الجنس ؟ سيجيب معظم الناس المتعلمين بأنه فرع من فروع الطب قاصدين بذلك علم الجنس المرضي على الأرجح . في حين أن مصطلح « علم الجنس » حمل منذ نشأته معنىً إصطلاحياً ، بل حقّ موسوعياً يجمع بين عدة فروع معرفية . في عام 1909 وفي معرض تعليقه على كتاب « فوريل » « المسألة الجنسية » ، تساءل الكاتب والناشر الروسي المعروف « فاسيلي روزانوف » : لماذا لم يفكّر ولا ألماني واحد حتىً الآن ، مع ما يعرف عند هذا الشعب من حب للتنظير والتصنيف ، بمصطلح « علم الجنس » كعلم خاص « عن الجنس » أو « الأجناس » . في الواقع كان هذا الشخص موجوداً . ففي عام 1907 وفي كتاب « الحياة الجنسية في الوقت الحاضر وعلاقتها بالثقافة المعاصرة » اقترح « بلوخ » إنشاء « علم جديد عن الجنس » Sexualwiss – enschaft مشيراً إلى أن هذا العلم يجب أن يجمع معطيات كل العلوم المتعلقة بالإنسان كالبيولوجيا العامة وعلم نشوء الإنسان وعلم الأعراق والسلالات والفلسفة وعلم النفس والطب والتاريخ والأدب والثقافة .

بالطبع ، لا تعني ولادة مصطلح جديد وإنشاء فرع معرفي جديد الشيء نفسه . فلقد اهتم الناس بمسألة الجنس دوماً ، واحتوت الأساطير القديمة والنظريات الفلسفية فيما بعد شروحاً محدّدة حول طبيعة الفروق بين الجنسين ومعلومات عن تشريح وفيزيولوجية الأعضاء التناسلية ، وعن تقنية الجماع والإلقاح والحمل والولادة . وبفضل الخبرة التاريخية المكرّسة فيها فإن الرسائل القديمة عن « فن الفراش » و « الكاماسوترا » الهندية أو « علم الحب » لأوفيدي في الوقت الراهن ليس لها أهمية تاريخية فحسب . ولكن علم الشبق Erotology أي نظرية وفن الحب العملي لم يكن يهدف لدراسة الجنس بحد ذاته ، بل كثّف وعلّل النظرات المتعارف عليها حول الجنس في مجتمع معيّن .

إن المقدمة الضرورية لبحث الجنس علمياً هي تخطّي النظرات الدينية والصوفية المرتبطة به ، والموقف الميدثي المتعلق بعدم تحليل الحياة الجنسية عن طريق استخدام مصطلحات دينية وأخلاقية لا لأنها تختلف من مجتمع لآخر فقط ،بل ومن منطلق تاريخي ـ طبيعي وعلى أساس وقائع مبرهنة وموثوقة . وقد تحققت هذه المهمة لأول مرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فلماذا حدث كل هذا التأخير؟ . لأن الدراسة الموضوعية للجنس لم تكن ممكنة بدون التطور المسبق لكل مجموعة العلوم البيولوجية والاجتماعية . وعلاوة على ذلك ، كان لا بد من تذليل المعارضة الهائلة للكنيسة والوقوف بوجه النفاق البرجوازي . فقد كانت الأخلاق الرسمية للمجتمع البرجوازي في أواسط القرن التاسع شعر مطعّمة بالمفاهيم المعادية للجنس . وقد اعتبرت الحياة الجنسية ، وعموماً كل ما له علاقة بالجسد ، أشياء قذرة وبذيئة لا يجوز للناس الشرفاء التفكير بها ناهيك عن التحدث عنها جهاراً . ففي انكلترا في بداية القرن التاسع عشر كان من غير المؤدب الطلب إلى المرأة الجالسة خلف منضدة الطعام تقديم رجل الدجاجة لأن ذلك يثير تداعيات جنسية مزعومة ! . وعند زيارة الطبيب كانت المرأة تُري مكان الألم ليس على جسدها بل على جسد لعبة . وتم في بعض المكتبات فصل الكتب المؤلفة من قبل النساء عن كتب المؤلفين الرجال .

وانتشرت الرقابة الأخلاقية بشكل واسع في القرن التاسع عشر . فانطلاقاً من تصورات خاطئة عن التأدب حُظِرت مؤلفات « رونسر » و « لافونتين » و « روسو » و « فولتير » و « بريغو » و « بيراني » ومؤلفين آخرين . وفي عام 1857 حدثت في فرنسا محاكمتان قضائيتان تمّت في إحداهما تبرئة مؤلّف رواية « مدام بوفاري » لأن « تدنيس المقدسات » و « مع أنه يستحق كل العقاب فهو يشغل حيزاً ضيقاً بالمقارنة مع حجم الانتاج الأدبي بشكل عام » ، أما « غوستاف فلوبير » (المؤلف) نفسه فـ « أعلن عن احترامه للعدل وكل ما يتعلق بالأخلاق الدينية » كما جاء في قرار الحكم . وحُوكم « بودلير » كذلك وحظرت 6 قصائد من ديوانه الشعري « أزهار الشر » ولم يرفع الحظر عنها إلّا في عام 1949 . وحدث مثل هذا في بلدان أخرى أيضاً . حتى أن مجرد طرح

مسائل الحياة الجنسية في مثل هذه الظروف تطلّب مروءة شخصية كبيرة .

كان الأطباء هم أول من درس الحياة الجنسية بصورة منهجية ، ولكن الدراسات تناولت أشكال الجنس المرضية . يذكرون من بين مؤسسي علم الجنس استاذ جامعة فيينا « ريهاردفون كرافت ـ ايبينغ » (1840 ـ 1902) وطبيب الأمراض العصبية وعالم النفس والحشرات « أفغوست فوريل » (1848 ـ 1931) وعالمي النفس الألمانيين « ألبرت مول » (1862 ـ 1939) و « ماغنوس هيرشفيلد » (1868 ـ 1935) وعالم النفس النمساوي ومؤسس التحليل النفسي « زيغموند فرويد » (1856 ـ 1939) وطبيب الأمراض الجلدية والزهرية الألماني « إيفان بلوخ » (1872 ـ 1922) والكاتب والناشر والطبيب الانكليزي « هنري غيفلوك إيليس » (1859 ـ 1939) . كان هؤلاء أناس مختلفين بكل المقاييس . فالملكي المحافظ « مول » لا يرتبط بأية علاقة ايديولوجية مع الاشتراكي الديمقراطي « هيرشفيلد » أو مع المسالم والعقلاني « فوريل » . واختلفت كذلك المواقف النظرية لهؤلاء ، ولكنهم جميعاً تعرضوا لمصاعب شتّى . فمثلاً ، كان « كرافت ـ ايبينغ » ، عالم النفس الألماني الموقّر ومؤلف أول دليل منهجي في « الاضطرابات النفسية الجنسية » « Psychopathia sexualis » ، 1886 قد كتب بعض الفصول الطريفة باللغة اللاتينية حتى لا يستطيع القراء العاديون فهمها . وأكثر من ذلك ، فقد اتهم معلّق المجلة الطبية الانكليزية الرائدة في عام 1891 المؤّلف بالتلذذ « بالتفاهات الوسخة » وأفصح عن أمله بأن الأوراق التي طبع عليها هذا الكتاب ستستعمل من أجل مثل هذه الحاجات السافلة . وارتفعت كذلك أصوات مطالبة بحرمان « كرافت ـ ايبينغ » من لقبه كعضو فخري في الجمعية الطبية النفسية البريطانية . وكان « بلوخ » قد نشر أغلب مؤلفاته في علم الجنس باسم مستعار . أما الرقابة الانكليزية فاعتبرت مؤلفات « أيليس » « بذيئة » وتعرض المؤلف نفسه للملاحقة القضائية ، هذا ولم يفكر أحد من الأطباء والعلماء المشهورين في ذلك الحين بالدفاع عن أعمال هذا المؤلف التي تعتبر بحق كلاسيكية . من جهة أخرى ، حطم الفاشيون الألمان معهد علم الجنس الذي أسسه « ماغنوس هيرشفيلد » وتعرض

الطبيب وعالم تاريخ الإنسان الإيطالي « باولو مانتيغاتسا » بسبب كتابه « العلاقات الجنسية البشرية » لحملة كادت أن تسفر عن حرمانه من منصبه العلمي كأستاذ ومن مقعده في مجلس الشيوخ . وحدثت وقائع عديدة من هذا النوع فيما بعد ، مما جعل تاريخ علم الجنس تاريخاً معذباً .

وحتى أكثر الباحثين « المحظوظين » الذين خلّفوا آثاراً علمية معروفة ، عاشوا وعملوا لسنين طويلة في أوساط العداوة والاتهام وخاصة فيما يتعلق بالجوانب الجنسية من شخصياتهم . يهتم بهذه الناحية أيضاً الكتاب المعاصرون لسيرة حياة هؤلاء العلماء . وهكذا تحولت الفكرة الإلهية القديمة عن الحياة الجنسية كخطيئة في وعي الجماهير إلى اعتقاد ثابت ، حتى أن كل من يهتم بهذه الناحية اعتبر غير طبيعي جنسياً . وعموماً يمكن القول أن اهتمام العالم بهذه أو تلك من الموضوعات فُسِّر بمشاكل حياته الخاصة . ولكنَّ هذا نادراً ما يصادف ، وإن نفس هذه المشاكل يمكن أن تكون مختلفة . فلا أحد يفكر بالطبع أنه على النهمين (وربما المقرَّحين)[1] فقط أن يمارسوا علم وظائف التغذية ، ويدرس الذين عندهم عيب في النطق العلوم اللغوية ، ويهتم الذين عندهم ميل للإجرام بعلم الإجرام . وهكذا فإنَّ الجنس موضوع اهتمام عام ومشكلة « الطبيعي » هنا معقدة بشكل خاص . فيعتقد أحدهم بأن لديه الناحية الجنسية « مفرطة » ، في حين يعتبرها الآخر « ناقصة » .

إنَّ وجود مشاكل خاصة عند المرء ، اللَّهم إذا تم له وعيها ، لا تمنعه من دراستها موضوعياً . وإلاّ لبقيت أهم المسائل بدون دراسة . فالنساء لا يستطعن الحكم على النفسية النسائية لأنهنَّ يتحيَّزن ، ولا يستطيع الرجال ذلك لأنهم غير جديرين . والعامل لا يستطيع دراسة وضع الطبقة العاملة بسبب مصلحته الخاصة وعدم كفاية معارفه العلمية ، في حين لا يستطيع المثقف ذلك بسبب « غربته » عن البيئة العمالية . هنا تتشكل حلقة مغلقة . وإذا كان الإنسان يستطيع دراسة ما يرتبط به شخصياً فقط ،

---

1 ـ المصابون بالقرحة المعدية . المترجم .

فإن المعرفة العلمية غير ممكنة مبدئياً : فالأوروبي لا يستطيع فهم الأفريقي ، ولا يمكن للمعافى دراسة المريض النفسي . وإذا كانت الخبرة الشخصية مضرة بالمعرفة ، فدراسة المشاكل الإنسانية تتطلب دعوة سكان كوكب المريخ على ما يبدو . ولكنه في هذه الحالات بالذات تتبيَّن أهمية الدراسة العلمية التي تعدُّ مفاهيم موضوعية (مع أن هذا نسبياً) تسمح بدورها بتقدير درجة موثوقية مختلف الآراء والنظريات بشكل مستقل عن الأحاسيس والعواطف الذاتية التي عاناها مؤلف هذه الآراء أو النظريات . وهذا ينطبق على علم الجنس .

لقد بدأ تحرر المعارف الجنسية من ربقة العقائد الأخلاقية والدينية الجامدة في مجال البيولوجيا أولاً . ليس فقط لأن الجنس ظاهرة بيولوجية شاملة بل لأن البيولوجيا كانت من أكثر فروع العلوم الطبيعية تطوراً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أمّا نظرية التطور « لداروين » فقد قدّمت مثالاً منهجياً لتطور العلوم الأخرى . ليس من الصعب كذلك أن نفهم لماذا بدأت دراسة مسألة الجنس من جانبه المرضي وليس الطبيعي . فالحياة الجنسية « العادية » بدت للعلماء بسيطة ولا تتطلب شروحاً خاصةً . أما الشذوذات الجنسية فموضوع آخر ، حيث أُدرجت في عدادها كل اشكال السلوك الجنسي المُدانة انطلاقاً من أخلاقية القرن التاسع عشر ، أي كل جنس غير مرتبط باستمرار النوع الذي بدا وكأنه وظيفة الجنس « الطبيعة » الوحيدة .

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت بوضوح نزعتان مستقلتان في تطور علم الجنس النظري . فمن جهة ، خفّت الحتميات البيولوجية الصارمة تدريجياً وفُسح المجال لظهور نظريات في علم النفس أدق وأعقد ، ومن جهة أخرى اغتنى وتعقّد مفهوم الطبيعي نفسه على قاعدة تضمينه مجالاً واسعاً من التغيرات .

عند نقد سذاجة النظريات البيولوجية المتعلقة بالجنس في القرن التاسع عشر يجب أن نتذكر محدودية مبدأ الإختزال البيولوجي الذي يحاول تفسير جميع الظواهر الاجتماعية والنفسية بقوانين بيولوجية مبسّطة ، كما أن البيولوجيا نفسها التي صفّق لها علماء ذلك الوقت طويلاً كانت ضعيفة التطور أيضاً . وبسبب عدم كفاية الوقائع التجريبية (لم

تكن الهرمونات الجنسية قد اكتشفت بعد) فقد تمّ ملء الفراغ بواسطة إنشاءات وافتراضات عامة انطلاقاً من الوعي المحدود والأخلاق البرجوازية السائدة .

ورأى مذهب التطورية في القرن التاسع عشر أن الماضي هو فقط مقدمة للحاضر ، ولكنه نظر إلى هذا الحاضر نظرة مثالية بصورة لا إرادية . وينطبق ذلك حتى على كلاسيكي العلم : إذ أعلن « تشارلز داروين » مثلاً في كتاب « نشوء الإنسان والإصطفاء العرقي ، 1871 » بأن الأخلاق الجنسية تتطور من « فوضى التوحش » إلى الأخلاق العليا المتمثلة في أحادية الزواج في انكلترا العصر الفيكتوري[1] وذلك بفضل القانون البيولوجي الطبيعي . وبنفس الدرجة بدت لداروين الفروق النفسية بين الجنسين متعارضة : عدوانية الرجل وحزمه تتكاملان مع سلبية المرأة ورقتها . بالتعبير الدقيق للباحث الأمريكي « آرنو كارلين » « A.Carlen » فإن العلم قد حل محل الدين في القرن التاسع عشر في تفسيره للأعراف والتقاليد .

وإذا كان الموقف من الامتناع الجنسي قد تعزّز بالحجج الأخلاقية الدينية القائلة بالخطيئة وبانحطاط « الحياة الجسدية » ففي الوقت الحاضر تبرز في المقدمة حجج بيولوجية كاذبة ، مثل الحديث عن أن تبذير « الطاقة الجنسية » يُنضب القوى الحياتية للبدن والتي يجب أن تستعمل في أشياء ذات فائدة أكثر . إن أغلب بيولوجيي القرن التاسع عشر ، مثلهم مثل اللاّهوتيين المسيحيين ، رأوا في استمرار النوع معنىً ومبرّراً وحيداً للحياة الجنسية . وقد بدت جميع الأشكال الجنسية التي تبغي أهدافاً أخرى غير مرتبطة بولادة الأطفال من خلال هذه النظرة أعمالاً لا أخلاقية وحتى « ضد الطبيعة » (جاء هذا المصطلح من اللاّهوت إلى البيولوجيا مباشرة) . وبالطبع ، لم يكن لمعارضة « الطبيعي » بـ « اللاّطبيعي » معنىً واحداً ثابتاً في كل الأوقات . فما الذي يعنيه مثلاً القول « أسلك سلوكاًطبيعياً » ؟ . هل هو الاقتداء بمثال الطبيعة ؟ . إنها مقولة غير واضحة أساساً لأن الطبيعة تقدم مجموعة من الأمثلة في الوقت نفسه ، كما أن الإنسان

---

1 ـ امتد عهد الملكة فيكتورية من 1837 إلى 1901 وكان مثالاً على الرياء والنفاق الرسميين في النظرة إلى الحياة بشكل عام . المترجم .

نفسه يغير الطبيعة جذرياً منشئاً « طبيعة ثانية » . وهل المقصود هو تقليد الحيوانات ؟ . في هذه الحالة يتقهقر كل تاريخ الثقافة إلى الحضيض ؛ وأكثر من ذلك ، تسلك أنواع مختلفة من الحيوانات سلوكاً مختلفاً . أم أن المقصود هو الاهتداء بالوظيفة المنوطة بأعضاء الجسم مستعملين هذه الأعضاء بهذا الشكل فقط وليس بغيره (العين للرؤية ـ والمعدة لهضم الطعام . . . الخ) ؟ . بيد أن للكثير من الأعضاء وظائف مختلفة ، كما ترتبط هذه الأعضاء مع بعضها البعض بصورة وثيقة ومتبادلة . وينطبق هذا تماماً على الجهاز التناسلي . وهكذا فإن الدعوة إلى « الطبيعية » تخفي فقط اللاّمعرفة والمحافظة الأيديولوجية .

ومهما كانت النظرية البيولوجية الطبية محافظة فهي بالتأكيد تطرح تساؤلاً : لماذا ؟ . فبالنسبة للاّهوت كان الشذوذ الجنسي خطيئة يحاسب مقترفوه أمام الرب والبشر . أما بالنسبة للعلم فيتمثّل بكونه مشكلة بحد ذاتها ، فلماذا تنشأ هذه الظواهر الغريبة ؟ مثل الرغبة الجنسية بأشخاص من نفس الجنس (السلوك الجنسي المثلي أو الجنوسة homosexualism) والحاجة لارتداء ملابس الجنس الآخر (انحراف الملبس transvestism) وتعريض الشريك الجنسي لصنوف التعذيب (السادية Sadism) أو الامتثال لهذا التعذيب (المازوخية masochism) وإضاعة المني الثمين بدون فائدة (الاستمناء Onanism) وغيرها كثير . فما هذا ؟ هل هو جريمة يحاسب عليها القانون ؟ أم مرضاً تجب معالجته ؟ وإذا تقرّر العلاج فبماذا ؟ وكيف ؟ . لم تكن الإجابة على مثل هذه الأسئلة سهلة أبداً .

ونظر الطب النفسي الذي ظهر لأول مرة في القرن التاسع عشر إلى العالم في البداية من خلال اللّونين الأسود والأبيض : فالنفس الإنسانية إمّا صحيحة وإمّا معتلّة (مريضة) ، كما توجد إما حالة طبيعية وإما مرضية . بيد أن الأطباء لاحظوا في بداية القرن التاسع عشر أنه إلى جانب الأشخاص « المجانين » يوجد آخرون طبيعيون في كل شيء ما عدا في ناحية خاصة محددة من حيواتهم .

في عام 1835 أدخل الطبيب (والاثنوغرافي) الانكليزي « جيمس بريتشارد »

فكرة « الجنون الأخلاقي (Moral Insanity) » و « الشذوذات المرضية » لبعض الأحاسيس والرغبات ، لكن بدون ، فقدان العقل . إنَّ هذه الفكرة مناسبة تماماً لوصف الانحرافات عن الحالة الطبيعية لأشكال السلوك الجنسي التي تتناول مركبات منفردة للرغبة الجنسية (كاختيار موضوع جنسي أو وضعية وطريقة لإشباع الرغبة غير مألوفتين) .

وصف الأطباء النفسيون في القرن التاسع عشر أعراض « شذوذات جنسية » متعددة الأشكال بالتفصيل . وأشير من خلال مصطلح « الشذوذ » إلى الطبيعة العضوية لهذه الاضطرابات ، وكأنها لا ترتبط ولا بأي شكل مع الجنس الطبيعي والصحيح . وبرز في هذا المجال بشكل خاص « كرافت ـ إبيينغ » في كتابه « الأمراض الجنسية النفسية » ، الذي يحتوي أمثلة سريرية كثيرة بيد أن تفسير هذه المعطيات يخلو من أي انسجام . وكمثال على ذلك يمكن أخذ المناقشة التي استمرت عدة سنوات بين « كرافت ـ ابيينغ » وبين عالم النفس الفرنسي الشهير « الفريد بيني » حول طبيعة الفيتيشية[1] . وقد أعطى « كرافت ـ ابيينغ » ، كمدافع عن موقف الحتمية البيولوجية ، أهمية بالغة للعوامل البنيوية . وعلى العكس ، أشار « بيني » إلى أهمية دور الارتباطات والعلاقات الجمعية : فقد يحدث الدفق المنوي عند مراهق فجأة ويصادف ذلك وجود إمرأة مرتدية منديلاً معطّراً بالليلك ، وبنتيجة تثبت هذا الجمع تستثير رائحة الليلك عند المراهق تهيّجاً جنسياً فيما بعد حتى بغياب المرأة نفسها . وهنا يبرز السؤال الآتي : لماذا يتثبت هذا الجمع العابر عند شخص ولا يتثبت عند آخر ؟ يعتقد « كرافت ـ ابيينغ » و «مول » بأنّ هذا يتعلق بالاستعداد الشخصي . ولكن ما هي طبيعة هذا الاستعداد ـ هل هو ولادي أم مرتبط بالخبرة الماضية عند الشخص ، أو بظروف تربيته وصدماته العاطفية الباكرة . . . إلخ ؟ ودارت أكثر النقاشات حدَّة حول الحب بين أفراد الجنس الواحد ، « خطيئة اللّواط » بالمصطلح الإنجيلي . وتبدو هذه النقاشات اليوم

---

1 ـ الفيتيشية ، Fetishism شذوذ جنسي يجد فيه المصاب لذّة في امتلاك ثياب أو اثر ما من آثار الشخص المحبوب . المترجم .

نظرية وتأملية وحتّى غريبة . ولكنها وضعت ودققت الكثير من الأسئلة التي لم تفقد أهميتها في يومنا هذا . ويعتبر « مول » و« فرويد » من مؤسسي علم الجنس الطفولي ؛ وإنَّ فكرة الأخير القائلة بوجود مرحلة خاصة من « الخنوثة عند المراهقين » تروق لبعض الباحثين حتى في وقتنا الحاضر .

وصف « هير شفيلد » بالتفصيل انحراف الملبس Transvestism واعتبره نتيجة خلل في التوازن الهرموني المذكر والمؤنث في العضوية ، وكان له أثر بالغ كذلك في دراسة الجنوسة Homosexualism في عام 1908 أسس « هير شفيلد » أول مجلة جنسية في العالم ، وفي عام 1918 - أول معهد لعلم الجنس « المركز العلمي التثقيفي للإرشاد والعلاج » الذي بقي حتى وصول النازيين إلى السلطة في ألمانية . لكنَّ مأثرة هير شفيلد الهامة إنه كان أول من استعمل الاستفتاءات الجنسية الشاملة من نموذج الاستمارة . ففي عام 1903 وزع رسائل بدون توقيع تحمل سؤالاً صغيراً عن الحياة الجنسية على (3) آلاف طالباً (تلقى 1756 جواباً) ؛ وفي عام 1904 أرسلت رسائل مشابهة إلى 5721 عاملاً برلينياً . ورغم عدم اكتمال طريقته فإنَّ المعلومات التي حصل عليها ما زالت تستعمل في وقتنا الحاضر لغرض المقارنة .

كما قدمت العلوم الانسانية في بداية القرن العشرين دفعاًجديداً لعلم الجنس السريري ، وخصوصاً الأتنوغرافيا والتاريخ . وكأن الرّحالة والجغرافيون القدماء قد وصفوا عادات وتقاليد الشعوب الغريبة ، ولفتوا الانتباه لحيواتهم الجنسية . وتوجد وقائع عديدة في العلوم الاتنوغرافية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، بيد أنَّ هذه المعلومات لم تكن ممنهجة وتذكّر غالباً بمختارات الطرائف . ولم يكن المؤلفون الأوروبيون مؤهلين لتجاوز أخلاقهم الجنسية الخاصة . وبرأي انجلز ، نظر هؤلاء إلى تقاليد الشعوب غير الأوروبية - في الظروف البدائية « على أنها بيوت للدعارة » [المجلد الثاني ، صفحة 41 بالروسية] . فعندما سئل مبشّر ديني إنكليزي عن عادات وأخلاق السكان الأصليين في أوستراليا أجاب بثقة : « لاتوجد أية عادات ، والأخلاق بهيمية » . إنَّ ظهور علوم الأتنوغرافيا والأنتروبولوجيا (علم الإنسان) في القرن التاسع

عشر قلب كثير من التصورات . وبما أن الثقافة الأوروبية لم تتعلم تحليل أخلاقها الجنسية الخاصة نقدياً فليس بمقدورها دراسة الجنس عند « الشعوب الغربية » موضوعياً . وقد تجنّب معظم علماء الأتنوغرافيا والأنسان في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هذه الأسئلة « الحرجة » ، ولم يكن بالإمكان نشر هذه المواد إلاّ بصعوبة . ومع هذا قامت محاولات أولى بهدف تعميم المعلومات التاريخية الأتنوغرافية ، مثل « تطور الزواج والأسرة » للأتنوغرافي الفرنسي « شارل ليتورنو » (1888) ، و « تاريخ الزواج البشري » للأتنوغرافي وعالم الاجتماع الفلندي « أدوارد فيستر مارك » (1891) . . إلخ . وجيء بشواهد عن الرمزية الجنسية والسلوك في دراسات تاريخ الدين ودراسة الطقوس القديمة للتأهيل الاجتماعي ـ Insiation ـ والجمعيات السرية والاتحادات الذكورية . ولم تستطع الفلسفة الكلاسيكية البقاء مكتوفة الأيدي أمام مشكلة اللّواط في حضارتي الرومان واليونان القديمتين . . . إلخ .

أخذ « إيفان بلوخ » على عاتقه أول محاولة لجمع المعطيات السريرية والثقافية المتعلقة بالجنس البشري ، واعتقد بلوخ بأنّ المدخل البيولوجي الى الجنس يجب أن يتكامل مع المدخل الثقافي التاريخي . وهذا بالضبط ما حاول بلورته في كتبه ومقالاته الكثيرة .

وعلى الرغم من أن أعمال بلوخ تبدو من وجهة النظر العلمية الحالية سطحية وغير موثوقة ، فإنها كشفت عن وقائع كثيرة لم تكن معروفة عند معاصريه ، مما دفع العلماء للبحث عن تفسير لها . ويميّز المدخلُ المتكاملُ ـ مع انحياز واضح لجهة البيولوجيا ـ جميع مشاهير علم الجنس في بداية القرن العشرين مثل « أوغيوست فوريل » الذي استمرت شهرة كتابه « المسألة الجنسية » [1905] حتى أواسط العقد الثالث من هذا القرن .

إنّ إعادة توجيه نظرية علم الجنس من البيولوجيا لجهة علم النفس تلاحظ بوضوح في أعمال « هيفلوك إيليس » الذي يعتبره « فاسيلتشنكو » من أعظم ممثلي الإتجاه الموسوعي في علم الجنس وأكثرهم موهبة . وتتضمن دراسة « إيليس » المؤلفة من سبعة مجلدات بعنوان « بحوث في علم نفس الجنس » (« Studies in the psychology of sex ») ،

1928 ـ 7981) كل شيء كان معروفاً في ذلك الوقت عن علم النفس الجنسي . وقد بلغ حماس إيليس مبلغه في توقه الإنساني لفهم مختلف أشكال الجنس البشري ، وذلك حتى لا يتم الحكم اعتباطياً على كل ما يختلف عن التصورات الثقافية المعاصرة أو لا يستجيب لميولنا الذاتيّة . كما أنه مهّد الطريق لفهم مرونيّة الجنس البشري . وساهم أكثر من أي عالم آخر في محو التصورات الكاذبة والمخاوف المتعلقة بالإستمناء ، وناضل بنشاط لتغيير المواقف البطريركية المحافظة حول المرأة . وقد اعتمد عليه في كثير من المواقف طبيب الأمراض النسائية الهولندي « تيودور هيندريك فان دي فيلدي » (1873 ـ 1937) في كتابه « الزواج المثالي » (1926) ، الذي ذاعت شهرته منذ أواسط العشرينات وحتى قرننا الحالي (في سنة 1967 طبع الكتاب للمرة السابعة والسبعين) ، وتقدّم المرأة في هذا الكتاب لا كموضوع بسيط للجنس المذكر بل كشريك كامل الحقوق يجب مراعاة احتياجاته تماماً .

الرغبات والمركّبات

إنّ أوسع النظريات المتعلقة بعلم الجنس انتشاراً في النصف الأول من القرن العشرين كانت ، بلا ريب ، نظرية التحليل النفسي « لزيغموند فرويد » والتحليل النفسي كنظرة فلسفية ونفسية وكأسلوب لعلاج العصابات النفسية هو ، بدون شك ، أوسع بكثير من مشاكل علم الجنس . لا أريد هنا الغوص في كل هذه القضايا ، وأحيل القارىء للأدب الخاص بها . وللأسف لا يوجد باللغة الروسية عرض ونقد منهجيين للنظرية الجنسية الفرويدية في ضوء المعطيات العلمية الحالية . و « فرويد » ، بخلاف الكثيرين من سابقيه ، نظر إلى الجنس لا كناحية جزئية ومحددة للحياة البشرية بل كأساس ومحور لهذه الحياة . وتشكل الرغبة الجنسية « الليبدو » (الكرع) بنظر فرويد منبع لكل طاقة الفرد النفسية ، وإنّ كل إشباع للعواطف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجنس . فقد كتب « فرويد » يقول بأن الحب الجنسي هو نواة ما يسمّى بالحب ، وهدفه الأساسي

هو المعاشرة الجنسية . وتشكل هذه الرغبة أساس الأحاسيس « غير الجنسية » مثل حب الشخص لذاته وحب الأهل والأولاد والصداقة وحب الإنسانية ككل وحقّ التعلق بمادة ملموسة أو فكرة مجردة . وكل أنواع الحب هذه حسب فرويد ، عبارة عن « تجلي لدوافع غريزيةواحدة ». وتشق هذه الدوافع لنفسها الطريق في مجال العلاقات بين الجنسين نحو العلاقة الجنسية ، وتضل سبيلها أحياناً أو لا تستطيع تحقيق هذا الهدف . بل ويمكن التعرُّف كذلك على الطبيعة البدئية الليبدوية (الكرعية) لهذه الأحاسيس بملاحظة التوق الدائم للمعاشرة والتضحية وكان هذا التفسير الموسَّع للرغبة الجنسية (الكرع) مدعاة لإتهام فرويد بتأليه الجنس Pansexualism لكنّ هذا لم يكن تحقيراً أو اختزالاً ميكانيكياً فالموضوعةالقائلةبأنّ «الدفعاتالجنسية » تشتمل على جميع الرغبات العاطفية والصداقية التي يطلق عليها اسم « الحب » مرتبطة بشكل وثيق بالمعنى الخاص الذي يعطيه « فرويد » « للجنس » : « ينفصل الجنس أولاً عن ارتباطه الصميمي بالأعضاء التناسلية وينظر إليه كوظيفة جسدية عامة تبغي المتعة ومن خلال ذلك فقط تسهم إعادة إنتاج النوع » . وبكلام آخر ، لا تنحصر الأحاسيس الجنسية مطلقاً بالتناسلية . كما أكّد « فرويد » بالاستناد إلى المعطيات السريرية على وجود عدة مناطق حساسة جنسياً تتولد بإثارتها مشاعر شبقية ، مع العلم أن فاعلية هذه المناطق تتبدل مع التقدم في السن . واستناداً إلى هذا يميّز فرويد بين عدة مراحل للتطور الجنسي النفسي المرحلة الأولى أو الفموية ،وتشمل السنة الأولى من العمر ، حيث الفم هو العضو الأساسي للذة عند الرضيع (المص ثم العض). المرحلة الثانية أو الشرجية (1 — 3 سنة) ، تتميز هذه المرحلة بازدياد اهتمام الطفل بعملية التغوّط ؛ يشعر الطفل باللذة أثناء مراقبة هذه العملية ويتمرّن في الوقت نفسه على الضبط الذاتي . المرحلة الثالثة أو القضيبية (3 ـ 5 سنوات) وتتميز بازدياد الاهتمام بالأعضاء التناسلية ، ويتجلّى هذا جزئياً بالإستمناء . والرمز الرئيسي في هذه السن هو العضو التناسلي (ومن هنا جاءت التسمية) ، والمهمة النفسية الأساسية لهذه المرحلة هي التماثل الجنسي التلاؤمي . إذ يترتب على الصبي في هذه المرحلة أن يتخلص من ميله اللاّإرادي نحو والدته (مركب

أوديب) ويتشابه مع والده ، أما البنت فتتخلص من ميلها نحو الأب (مركب إيلكتري) ومن حسد الصبيان على وجود القضيب عندهم وتتماثل بالتالي مع الأم . المرحلة الرابعة أو الكامنة ، وتستمر حتّى بداية البلوغ الجنسي وتتميز بانحسار مؤقت لردود الفعل والاهتمامات الجنسية ؛ وتخبو الرغبة الجنسية فاسحة المجال لظهور الـ « أنا » الواعية والاهتمامات المادية عند الطفل . ومع البلوغ الجنسي تبدأ المرحلة التناسلية لتطور الفرد ، عندما تجد الرغبة الجنسية (الكرع) إشباعها عن طريق المعاشرة الجنسية . فإذا اعترض شيء ما إحدى هذه المراحل يحدث التراجع القهقري نحو المراحل السابقة . ويرى « فرويد » في التقهقر النفسي « الإعاقة » نحو المراحل السابقة مفتاحاً لفهم كل أشكال الانحرافات الجنسية . لم ينكر « فرويد » تأثير العوامل البنيوية والكيماوية العصبية التي تدفع الفرد إلى هذا الانحراف أو ذاك ، لكنه اعتقد ـ لم تكن هذه العوامل قد اكتشفت بعد ، وحتّى بعد اكتشافها ـ بأنّ الوسيلة الرئيسية والوحيدة لعلاج هذه الانحرافات هي التحليل النفسي ، أي التحري عن الصدمة النفسية التي أعاقت أو شوّهت السير الطبيعي للتطور الجنسي النفسي عند الفرد ، والتخلص من العواقب النفسية لهذه الصدمة عن طريق وعي أسبابها .

إنّ المدخل المقترح من قبل « فرويد » للجنس يرفض الحتمية البيولوجية الصارمة ويركز الانتباه على خصائص التطور الفردية . ويحلّل فرويد كذلك الفروق الدقيقة بين الدوافع الجنسية النفسية والعلاقة المتبادلة ما بين الرغبة « الحسية » والرغبة « اللّطيفة » ، وبين التعلّق الشبقي واللاّشبقي . ولم يقتصر فرويد على دراسة إنسان مأخوذ بمفرده بل جهد في إيضاح علاقة السلوك الجنسي الفردي بالمعايير الثقافية والكشف عن جذور الرموز الجنسية في تطور الأنواع الحيوانية ، وكذلك أصل وجوهر المحرمات الجنسية الهامة مثل تحريم سفاح القربي (اختلاط الدم) أو الحفاظ على العذرية . ويشير فرويد إلى أنّ بعض الأشكال النموذجية للأمراض الجنسية مثل العنانة النفسية تمتلك في الواقع جذوراً إجتماعية . ولا يوضح نظريته بالمعطيات السريرية فقط ، بل وبمعلومات تاريخية وأتنوغرافية ومن دراسة سيرة حياة وإبداع الناس العظماء

(ميكيل انجلو وليوناردو دافنشي وغوته وغيرهم) .

لقد كان أثر فرويد عظيماً في تطور جميع نواحي علم الجنس . وكان هو أول من أشار إلى دور وأهمية الجنس في الحياة البشرية . فإذا كان العهد الفيكتوري قد اعتبر الجنس مجرد متعة وتسلية يمكن الاستغناء عنها ، ففي الوقت الحاضر يُعترف به كضرورة ليس لاستمرار النوع الإنساني فحسب ، بل ولقيام الشخصية بوظائفها بشكل طبيعي . وكانت قيِّمة جداً تلك الإشارة إلى العلاقة العضوية بين الأحاسيس الجنسية واللاّجنسية وإمكانية الانتقال من إحداها إلى الأخرى . هذا يعني أن الجنس لا يمكن أن يفهم خارج إطار الشخصية ككل ، ولا تفهم الشخصية دون أخذ أحاسيسها الجنسية بالحسبان أيضاً . ولا يتم فهم التأثير المتبادل للبيئي والاجتماعي على تطور الجنس ميكانيكياً بل بالجمع بين هذا وذاك في سيرة حياة الفرد ، ومن هنا حثّ المعالج النفسي للبحث عن أسباب التشوهات والمصاعب الجنسية النفسية في تجربة الشخص الماضية . وبدت مفيدة جداً كذلك فكرة « فرويد » عن أهمية الأحاسيس الطفولية الباكرة وخاصة العلاقة مع الأهل كخلفية عاطفية وحتّى كسبب غير مباشر لتكوين نمط معين من السلوك الجنسي . وأنّ تحليل الأحاسيس غير الواعية ، كالرموز الجنسية وآليات الدفاع الذاتي والتخيلات الشبقية والأحلام الليلية ، لم يكن له أهمية سريرية فقط ، بل ودفع لدراسة هذه الظواهر بصورة تاريخية مقارنة من خلال مصادر من تاريخ الدين والثقافة . ولم يعد يعتبر الشذوذ الجنسي جريمةً أو نتيجة لتنكّس عضوي ، بل صار يُنظر إليه كتضخيم أو إعاقة لجوانب ومكونات معينة من التطور الجنسي النفسي الطبيعي ، والتي يستطيع أي كان ملاحظة بعض من عناصرها في نفسيته هو بالذات .

وسبب هذا الاكتشاف صدمة ثقافية حقيقية . فقد كتب « هربرت ويلز » في كتابه « الحذر ضروري » ، « طوال مائة عام استطاع هومونيولير (الشخصية المجانية للبرجوازي) التنكر وكأن رغباته السرية والتصرفات غير الجذابة بالمرة لا تشغل باله وأن الأفعال الحمقاء للناس من حوله تعتبر « انحرافاً عن الحالة الطبيعية » وإحباطات لا علاقة لها به إطلاقاً - « آه ، ياللهول ! » - أو أن كل هذا ناتج عن ظروف استثنائية

كالوساوس الشيطانية .

وبعد خروج التحليل النفسي إلى الأضواء الساطعة استُلَّت هذه الرغبات من « الوعي الباطن » ، ذلك المعقد من الرغبات والأحلام الذي أنكره وأخفاه المحلل النفسي (فرويد) حتى الآن . « ما هذا ؟ إنكم تثيرون عجبي » ، صرخ المحلّل النفسي كساحر يسحب الأرنب من شوشة المتفرج المحترم : « عند كل منا يوجد وعي باطن » . « عند كل واحد بالتأكيد نعم ! ولكن . . . » .

« صرنا نتذكر هذه الأشياء التي اعتدنا عدم التفكير بها . لقد كان هذا وقعاً سيئاً » ، هذا ما قاله الكاتب الخيالي « ويلز » .

في البداية أثارت نظرية « فرويد » هذه فضيحة ، واعتبرت افتراءاً على البشرية . فعندما اقترح أحدهم من على منبر المؤتمر الدولي للأطباء النفسيين في هامبورغ عام 1910 مناقشة نظرية « فرويد » ، رد الرئيس قائلاً : « هذا الموضوع ليس مكانه مؤتمر علمي بل يجب إرساله إلى الشرطة » . لكن اللوحة تغيرت بالتدريج . ولاقت الفرويدية ، مع تحديثات ملموسة عليها ، مساندة من قبل مشاهير العلماء وخاصة من قبل الأدباء والفنانين واعتبر التحليل النفسي طريقة علاجية أو ، على أقل تقدير ، أسلوباً لتفسير وتخفيف بعض الاضطرابات الجنسية النفسية . وصار حتى أعداء فرويد السريريين يجدون عنده ملاحظات خاصة قيّمة كثيرة . ومنذ أواسط العشرينات أصبحت الفرويدية عملياً الإتجاه السائد في علم الجنس في كل من أوروبا وأمريكا .

بيد أنّ تأثير « فرويد » في تطور علم الجنس كان متناقضاً حقاً . فعند تقييم أعماله في ضوء المعطيات العلمية الحالية تثير الدهشة فينا دقة معرفته واستطاعته التقاط وحصر المشاكل الأساسية في علم الجنس ، وفي نفس الوقت يبدو الكثير من الحلول الفنية التي اقترحها خاطئاً في الوقت الراهن . ودون الغوص في التفاصيل والمشاكل سأشير فقط للخطوط الأساسية في علم الجنس النظري المعاصر التي لا تتوافق مع طروحات « فرويد » .

قبل كل شيء تعرّض تأليهه للجنس لنقد حاد . فقد أشار الطبيب النفسي

الأمريكي الشهير « روبرت ستولر » بحق إلى أنّ مفهوم « الجنسي » عند « فرويد » يتضمّن معان كثيرة جداً . فهو يعني الخصائص البيولوجية التي تميّز العضويتين المؤنثة والمذكرة والليبيدو (الكرع) كغريزة لاستمرار الحياة والمشاعر الحسية المرتبطة بالحصول على اللّذة والسلوك التوالدي الموجه نحو استمرار النوع ، وكذلك الأحاسيس الشبقية العنيفة في بعض أجزاء البدن والمترافقة بالتخيلات . وبتفسيراته الموسعة للرغبة الجنسية (الكرع) حاول « فرويد » البرهان على وحدة العالم العاطفي عند الشخص . فإذا فهمنا الكرع بمعناه الواسع كمصدر لكل حياة الفرد العاطفية ، يبدو التأكيد على الطبيعة الكرعية لكل الصلات البشرية ـ ثرثرة فارغة . وإذا حمّلنا الكرع هذا معنىً أضيق يتعلق بالأحاسيس التناسلية والحسية الشبقية فعندها لا يمكننا اختزال كل غنى العلاقات البشرية بالكرع وحده . ما من شك في أن فرويد كان محقاً عندما أشار إلى أن الكرع يمكن أن يتظاهر بأشكال محوّلة غير شبقية بمحتوياتها ودوافعها . ولكن ، كما سنرى فيما بعد ، يمكن أن يحدث تحول معاكس ، عندما يهدف سلوك جنسي واضح ، مثل عرض الأعضاء التناسلية أو العملية الجنسية ، لتحقيق وظائف غير جنسية ، نفسية واجتماعية .

والعيب الأساسي الثاني في نظرية فرويد هو النموذج الهيدروليكي النفسي للجنس . فعلى الرغم من أنّ « فرويد » قد اعترف بتأثير الثقافة والتربية في تطور الشخصية فقد بقيت في مركز اهتمامه التحولات التي تحدث داخل الشخصية . ويكتسب الفرد ، وفقاً لفرويد ، كمية محددة ومثبتة من الطاقة النفسية ، حيث يساعده المجتمع ، بهذا الشكل أو ذاك ، على « مسلكتها » وتحقيقها . وبما أن كمية الطاقة هذه محدودة ، فإنه يتوجب على الفرد أن يختار بين النشاط الجنسي وبين أنواع أخرى ما من النشاط مفيدة اجتماعياً . من هنا ينتج الصراع المستعصي بين الجنس والثقافة إذ يؤكد كبت الجنس العصابات ويؤدي انفلاته إلى انحطاط الثقافة . وإن الأخلاق الجنسية القمعية ، طبقاً لفرويد ، هي الثمن الذي تدفعه البشرية لقاء تطور الحضارة . لكن هذا الإدّعاء غير صحيح في ضوء المعطيات المعاصرة . فأولاً ، يكتسب الناس موارد

طاقية مختلفة ، وفي سياق نظام فيزيولوجي معتدل لا يعيق النشاط الجنسي أشكال النشاط الأخرى ، وحتى أنه قد يزيد من فعاليتها . وثانياً ، لا تشير الثقافة فقط إلى القنوات التي يمكن من خلالها للطاقة الجنسية أن تنساب ، بل وتكون سيناريو ملموس لسلوك الفرد الجنسي والمواقف والميول الجنسية النفسية المميّزة له . لا يدور الحديث إذاً عن صراع شامل بين « الجنس » البيولوجي والثقافة بل يدور حول تناقضات ملموسة بين المعايير الأخلاقية الثابتة نسبياً وبين السلوك الفردي الأكثر تبدلاً وتنوعاً .

يكمن التقييد الفيكتوري في أساس النظرية الفرويدية عن الجنس المؤنث . ففرويد ، ذلك الإبن الحقيقي لعصره وطبقته ، لم يشك أبداً في أن جميع الملاحظات التجريبية للفروق الجنسية والتي تشمل السيطرة الذكورية هي عبارة عن قانون بيولوجي عام . لكن العلم الحديث يعتبر النزاع حول الجنس الأعلى لا معنى له ، مثله مثل الحديث عن الأعراق العليا والدنيا . ولم تصمد للتجربة موضوعات فرويدية كثيرة حول النساء : كعمومية مبدأ « حسد الذكور على وجود القضيب » ، وعن الحاجة الجنسية المنخفضة عند النساء . . . إلخ .

وأعيد النظر جذرياً كذلك بنظرية الجنس الطفولي لفرويد . وقد أوضح فصل النواحي البيولوجية والنفسية للثنائية الجنسية Bisexualism بعض مراحل التمايز الجنسي الحرجة والمختلفة كيفياً والتي لا تتوافق مع تلك التي وضعها فرويد . كما ويفسر محتوى المراحل التي حددها بشكل مختلف . فقد كان « ب . فالينوفسكي » قد شكك منذ العشرينيات بشمولية « مركّب أوديب » . ثم أُلقي بهذا المبدأ بعيداً من قبل الإتنوغرافيين . ولم تصمد للبحث التجريبي أيضاً نظرية فرويد عن التماثل الجنسي . ومع الاعتراف بأهمية التماثل مع نموذج ذكوري معين عند الصبي مثلاً ، فإن علم النفس الحديث يشير إلى أن هذا الرجل ليس من الضروري أن يكون الأب . وعموماً فإن تبعية التماثل الجنسي النفسي عند الطفل لعلاقاته المتبادلة مع الأهل أعقد بكثير وذات معانٍ متعددة قياساً لما يقترحه نموذج مركّب أوديب . ودحضت كذلك آراء « فرويد » القائلة بأن الفروق النفسية بين الصبيان والبنات تظهر فقط في سن 5 ـ 6 سنوات ، ولم يتأكد

كذلك وجود « المرحلة الكامنة » وغيرها .

إنّ وعي هذا أو ذاك من مكامن الضعف في النظرية الفرويدية أدّى إلى أن فقد التحليل النفسي موقعه المسيطر في العالم الغربي بدءاً من الستينات (في الاتحاد السوفياتي لم يشغل هذا الموقع مطلقاً) . فمن جهة يتعرض للنقد من قبل ممثلي العلوم البيولوجية . ومن جهة ثانية يعلّق علم النفس الحديث أهمية بالغة على العوامل الثقافية والاجتماعية في التطور النفسي الجنسي . وينطبق هذا حتّى على العلماء الذين تربوا على التحليل النفسي (« أريك أريكسون » و « هاري ساليفين » و « روبرت ستوللر » و « ليون سولتسمين » وغيرهم) . فبعد رد الجميل لفرويد ، ابتعد هؤلاء عن مواقفه العامة . ومن الملاحظ أن أكثر الاتجاهات الجدية والموثوقة ، وكذلك الأعمال النظرية في علم الجنس والتي خرجت للضوء في الغرب خلال السنوات الأخيرة ، كتبت من مواقع غير فرويدية وحتى ضد الفرويدية ، ومع ذلك لم ينكر أحد أبداً دور « فرويد » العظيم في العلم وسليقته الحادة .

من ذكر السوابق (الإدّكار)[1] إلى الاستمارة الإحصائية

مهما بلغ مبلغ الجدال الذي نشب بين « فرويد » و « مولل » و « هيرشفيلد » و « بلوخ » و « ايليس » ، فقد كان علم الجنس بالنسبة لهم هو علم الجنس المرضي على الأرجح . ولم يعترفوا بأن السلوك الجنسي « الطبيعي » يعتبر مشكلة تحتاج إلى التفسير . وقد تمّ الإقتراب تدريجياً من هذا العلم وبشكل رئيسي (إذا استثنينا المعطيات الاتنوغرافية) عن طريق بحث الشذوذات والحالات المصادفة في السريريات وفي الحياة العامة ولكن ومع الأهمية الكبيرة للطب النفسي السريري فهو لا يمكن أن يكون المصدر الوحيد والرئيسي لنظرية علم الجنس . إذ أن التظاهرات الغنية والمعقدة والتي تختلف من

---

1 ـ الإدّكار anamnesis ـ المترجم .

حالة إلى أخرى في الطب النفسي السريري تجعل معلوماته صعبة التعميم ؛ وأنَّ النمذجة والتصنيف في الطب النفسي المعتمد على دراسة الأعراض الخارجية ، تتطلب نفسها أساساً نظرياً ينبثق من قوانين بيولوجية ـ نفسية معينة .

ولأجل تحطيم الحلقة المعيبة الناتجة عن كون الطبيعي أو النظامي يفسَّر من خلال المرضي ، والأخير بدوره يتحدد بعلاقته مع الطبيعي المضمَّن الذي لا نعرف عنه شيئاً ، كان على علم الجنس أن يخرج خارج إطار السريريات ويتجه إلى دراسة سلوك وفيزيولوجية ودوافع الأشخاص العاديين في ظروف حياتهم الواقعية .

ولكن من وما الذي يعتبر نظامياً وطبيعياً ؟ إنَّ مفهوم النظامي في البيولوجيا والطب يحمل معانٍ متعددة . أولاً ، يفهم النظامي كشيء ما ضروري وكمقياس يجب التساوي معه ، مقيِّمين من خلاله السلوك الفردي ، ومثال على ذلك المعايير الرياضية والغذائية . ولكن مثل هذه النظم ـ المعايير مشروطة دائماً ولها أهميتها فقط في نظام حسابي معين . ثانياً ، يفهم النظامي إحصائياً كمتوسط للظواهر الأكثر مصادفة وعمومية ؛ وبالنسبة للعلم المعاصر يشمل النظامي بالمعنى الإحصائي المجال الإحصائي المتوسط بالإضافة إلى سلسلة من الإنحرافات عنه وضمن نطاق معروف . ثالثاً ، ويفهم النظامي كذلك كتناغم وظائفي أمثل يقصد به سير العمليات في الجهاز بحيث تتأمن درجة عالية من التناسق والفعالية والمردودية . ويختلف النظام الوظيفي من فرد إلى آخر ولا يتحدد اختلاله بسعة الإنحراف عن المتوسط الإحصائي بل بالعواقب الوظيفية .

بالإضافة لهذه المقاييس المنهجية الشكلية يمتلك مفهوم النظامي مجموعة من المتغيرات الكمية القيِّمة . فالحديث عن النظامي يتضمَّن دائماً السؤال الآتي : « نظامية ماذا ؟ » . ويمكن للنظم الأخلاقية والفيزيولوجية والنفسية أن تتطابق أو لا تتطابق مع بعضها البعض ، فهي نظم مختلفة وتمتلك أنظمة حسابية مختلفة . فشدة الحياة الجنسية تقاس بشكل يختلف عن مستوى الإرضاء الناتج عنها . . الخ . للأسف ، لا يتم دائماً توضيح المقصود بمفهومي « نظامية » أو « لا نظامية » الجنس ؛ وتختلط النظم الأخلاقية

بالنفسية أو الفيزيولوجية والمتوسطات الإحصائية بالوظيفية والمعدلات الكمية بالكيفية وهكذا . . .

وقد فهم علم الجنس السريري في بداية القرن العشرين النظامي كمعيار ، كما أن المعدلات البيولوجية أبعدت برمتها تحت ضغط الأخلاق الرسمية . ما هي إذن المعايير الإحصائية المتوسطة للسلوك الجنسي ؟ وكيف يتصرّف الناس من هذه الناحية خارج حدود السريريات ؟ لم يعرف العلماء عن هذا أي شيء . فمن أجل الحصول على هذه المعلومات لا بد من إجراء استفتاءات جماهيرية شاملة . وبدأت مثل هذه البحوث منذ بداية القرن العشرين بمبادرة « هيرشفيلد » . وقبل « هيرشفيلد » وفي عام 1901 تمّ استجواب / 595 / طالباً جامعياً من قبل « فون رومبر » في مدينة امستردام . إنّ أول محاولة من هذا القبيل في روسيا كانت في عامي 1903 ـ 1904 (/ 2150 / طالباً من جامعة موسكو) وقد قام بها « م . أ . تشلينوف » (وظهرت نتائجها في عام 1907) . وأجريت مثل هذه الإحصاءات في بلدان كثيرة بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانت هذه الاستفتاءات كثيرة جداً في الاتحاد السوفياتي وخاصة في العشرينيات فيكفي أن نتذكر مثلاً أعمال « ي . غ . غيلمان » الذي استجوب / 1214 / طالباً و 338 طالبة ، و « س . يا . غولوسوفكير » وقد استفتى أكثر من / 2000 / من الرجال الشباب و / 550 / امرأة ، و « م . س . باراش » الذي درس / 1450 / رجلاً عاملاً ، و « س . ي . بورشتين » الذي استجوب أكثر من / 4600 / جندياً وطالباً ، و « ف . فاسيليف » وقد درس / 250 / امرأة قرغيزية من المناطق الفلاحية ، و « د . ي . لاسّ » الذي استجوب أكثر من / 2300 / طالباً ، و « ن . س . خرابكوفسكايا » و « د . يو . كونتشيلوفيتش » اللّذان درسا أكثر من / 3350 / عاملاً في مدينة ساراتوف . وكما لاحظ « غ . س . فاسيلتشنكو » ، فقد سبقت شمولية هذه الأعمال ومنهجيتها الصارمة أبحاث معاصريهم من الباحثين في البلدان الأخرى . وكانت بعض هذه الأعمال قد ترجمت أو أخذت منها مقتطفات طويلة في بلدان الغرب .

وظهرت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مجلات جنسية مختصة وجمعيات علمية . وكان من الدوريات الأولى في علم الجنس المرضي « فهرس الأمراض النفسية الجنسية(*) » وقد حررَّها « باسكوالي بنت » (منذ عام 1896) و « حولية المراحل الجنسية(*) » وقد كان « هيرشفيلد » رئيس تحريرها (1899 ـ 1923) . وأصدر « هيرشفيلد » في عام 1908 أول مجلة علمية جنسية عامة « المجلة الجنسية العلمية(*) » ، وقد التحق قبل ذلك بعام بالمجلة الشعبية « مشاكل جنسية(*) » الذي حررَّها « ماكس ماركوزي » . وفي عام 1914 استأنف « بلوخ » بالاشتراك مع « البرت الينبورغ » إصدار « المجلة الجنسية العلمية(*) » كناطقة باسم الجمعية الطبية للجنس وتحسين النسل التي تأسست في عام 1913 واستمرت حتى عام 1923 . وتشكلت في عام 1913 كذلك « الجمعية الدولية للبحوث الجنسية » برئاسة « مولّ » . ونشر الكثير من الدراسات الاتنوغرافية والتاريخية الجنسية القيمة في مجلة « تاريخ علم الإنسان(*) » التي حررّها العالم الأتنوغرافي الفييني (من فيينا) المشهور « فريدريخ كراوُس » بالاشتراك مع « فرانتس بوآس » ومشاهير آخرين من علماء ذلك الوقت . ومهما بدت المسائل الجنسية ذات طابع اختصاصي فقد اقترن تطورها بشكل وثيق مع الميول العامة للرأي العام والحركات الاجتماعية . ففي عام 1921 نظّم « هير شفيلد » في برلين أول مؤتمر علمي دولي للإصلاحات الجنسية . وفي عام 1928 وفي المؤتمر المنعقد في مدينة كوبنهاغن تأسست الجمعية الدولية للإصلاحات الجنسية ، وكان رؤساؤها « ايليس » و « فوريل » و « هيرشفيلد » على التوالي . لم تكن هذه الحركة متجانسة مطلقاً من حيث محتواها ومواقفها البرنامجية . وقد تقدم أعضاء هذه الحركة بعدة مطالب تقدمية : سياسية واقتصادية وحول المساواة الجنسية بين النساء والرجال ، وتحرير الزواج والطلاق من تسلط الكنيسة ، وتطوير الثقافة الجنسية ، وتغيير القوانين المناهظة لمنع الحمل والإجهاض ، وحفظ حقوق الأمهات غير المتزوجات والأطفال « غير الشرعيين » . . . الخ . بالإضافة لذلك قدّم بعض المؤلفين « الإصلاحات الجنسية »

---

* ـ كتبت في النص الأصلي باللغة الألمانية . المترجم .

على الاجتماعية ونبّهوا للوضع غير العلمي لتحسين النسل . وانتشرت كثيراً في تلك السنوات النظريات الجنسية التأملية ، مثل « الماركسية ـ الفرويدية » لـ « فيلهلم رايخ » (1897 ـ 1957) . وقد ماثل « رايخ » بين أي ابداع والإيغاف (الارجازم Orgasme) وبين أيّة ضوابط اجتماعية للسلوك الجنسي والأخلاق البرجوازية القمعية ، واعتبر أنّ الثورة في الأخلاق الجنسية هي مقدمة لأية تحولات اجتماعية واقتصادية عميقة . ونحو أواسط الثلاثينيات تركت حركة من أجل « الإصلاحات الجنسية » مكانها ليحل محلها تحولات اجتماعية أكثر أهمية ومأساوية (الأزمة الإقتصادية العالمية وقيام الدكتاتوريات الفاشية في عدة بلدان واقتراب خطر حرب عالمية جديدة) ، وهنا سارت هذه الحركة بسرعة نحو حتفها .

بيد أن البحث العلمي للمسائل الجنسية لم يتوقف . وعلى العكس ، في نهاية الثلاثينيات بدأ العالم الأمريكي « ألفريد كينزي » (1894 ـ 1956) بحوثه التي غيرت كل تصوراتنا عن الجنس البشري . وبدأت قصة هذا العمل على هذا النحو : في عام 1938 تقدّمت طالبات الجامعة الهندية بطلب إلى الإدارة لتنظيم حلقة محاضرات لطالبات الصفوف العليا اللّواتي يتهيئن للزواج . وكلّف بتحضير هذه المحاضرات التي تضمّنت النواحي البيولوجية والاجتماعية والإقتصادية والحقوقية والنفسية لعلاقات الزواج والأسرة ، مجموعة من 7 أساتذة برئاسة « كينزي » . إنّ « كينزي » هذا ، عالم الحيوان الشهير ومؤلف الكتاب المدرسي الواسع الإنتشار في البيولوجيا ، كان قد اهتم من قبل بموضوع قلّة المعلومات العلمية المتعلقة بسلوك الإنسان الجنسي واختلاف معايير هذا السلوك من مجتمع لآخر . وقد أخذته الرغبة في ملء هذا الفراغ ، قام كينزي بإجراء أحاديث موثوقة بهذا الموضوع مع طلّابه وتعميم خبرتهم وآرائهم . وتوسعت بالتدريج حلقة المستجوبين واكتملت طريقة الاستجواب التي تميزت بإجراء مقابلة موّحدة تحتوي على القصة الكاملة لحياة المستجوب الجنسية .

وبفضل المساعدة المادية المقدّمة من قبل اللّجنة العلمية المشتركة لبحث المشاكل الجنسية التي تأسست في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1921 ، ومن صندوق روكفلر

تمكَّن « كينزي » في أعوام 1941 ـ 1946 من الاستعانة بمساعدين له وتوسيع نطاق عمله . ولم يكن هذا الأمر سهلاً . فكما تذكَّر أحد مساعديه فيما بعد ، كان « كينزي » بحاجة لأناس من أسر سعيدة ، ومستعدّين لقضاء أوقات كثيرة متجولين في أنحاء البلاد ، ويحملون شهادات علمية جامعية وأساتذة ، ويعرفون كيف يتكلمون مع أناس من الفئات الاجتماعية الدنيا ، وأمريكيين مئة بالمئة ، ولا يؤمنون بالأضاليل الجنسية . وهذا الشرط الأخير كان الأصعب تحقيقاً .

وقال « كينزي » لأحد علماء النفس الذي أراد العمل معه : « لا أستطيع أن أتعاون معكم لأن الموضوع لا يهمكم . فاعترض عالم النفس : ولكني أهتم كثيراً . لكنَّ كينزي أضاف ، انظروا إلى موقفكم بالذات ، إنكم لا تشكون بأن الاتصال الجنسي بين أفراد الجنس نفسه هو شذوذ ، وإنَّ الإستمناء هو علامة عدم النضج ، وإنَّ العلاقات الجنسية خارج الزواج تحطم الأسرة . . . الخ . عندكم إجابات جاهزة لكل شيء ، وتعرفون كل شيء مسبقاً ، فلماذا إذن يجب القيام بهذه البحوث العويصة ؟ » .

وعلى الرغم من معرفة « كينزي » لأهمية العوامل البيولوجية والنفسية في الجنس فإنه اعتبر مهمته الرئيسية والمفتاحية هي الدراسة الموضوعية للسلوك الجنسي . يمكن أن لا يعرف الناس دوافعهم بالذات أو أن يخطئوا في تفسيرها . ولكنه بفضل هذه الطريقة الضرورية . يستطيع الإنسان أن يتكلم بصراحة عن أفعال ووقائع من سيرة حياته الجنسية وحتى أكثرها سرية . وقد حلم « كينزي » بجمع 100 ألف قصَّة جنسية ، ولكنه تمكنَّ من إجراء 19 ألف مقابلة تقريباً ، احتوت كل منها على 350 ـ 520 نقطة من المعلومات . وكان هذا بالفعل عملاً جباراً ليس له مثيل حتى يومنا هذا . إن نتائج هذا العمل المعروضة في كتاب من جزئين « السلوك الجنسي للرجل » (1948) و « السلوك الجنسي للمرأة » (1953) مثَّلت ثورة حقيقية في علم الجنس . حيث صار لهذا العلم أساس كمي ، وتمَّ الكشف عن المجال العريض من التباينات الفردية والاجتماعية في السلوك الجنسي . بالإضافة لذلك ، سمحت الطريقة الإحصائية بمناقشة المواضيع التي كانت محظورة من قبل .

لكنّ العمل العلمي البطولي « لكينزي » (اعتبر « غ . س . فاسيلتشنكو » بحق نشاط « كينزي » مثالاً للتفاني في خدمة العلم) دُفع ثمنه غالياً . واصطدم عمله منذ البداية بمقاومة عنيفة من قبل الرجعيين والحاقدين . وعندما عرف زملاء « كينزي » ما يفعله زميلهم امتنع أكثرهم عن إلقاء التحية عليه . وفي عام 1940 وتحت ضغط الأوساط الاجتماعية المحافظة طلب رئيس الجامعة من « كينزي » الإختيار بين الإمتناع عن ممارسة البحث بهذا الموضوع وبين التوقف عن إلقاء سلسلة المحاضرات المتعلقة بالتحضير للزواج . فاختار « كينزي » الاستمرار في البحث وتوقف عن إلقاء المحاضرات . لقد حمل نشر معلوماته مجداً عالمياً « لكينزي[1] » ، وسبب في نفس الوقت فضيحة شاملة . فقد استاء المنافقون وصرّ الحاقدون على أسنانهم . وبدأ موظفو الجمارك الأمريكيون عام 1950 بمصادرة كل المواضيع الشبقية المرسلة لمعهد « كينزي » . وفي عام 1954 انهال عليه المكارثيون[2] . واستجاب صندوق روكفلر لطلب هؤلاء وأوقف تمويل أعمال « كينزي » ، وتم سحب منشورات المعهد من المكتبات العسكرية (تقف الطغمة العسكرية ، مثلها مثل الرقابة ، كحارس « للأخلاق العالية ») . وقرّرت اللجنة المكلّفة بملاحقة النشاطات المعادية لأمريكا ، بدون الاستماع لـ « كينزي » أو مؤيديه من العلماء ، أنّ « بحوث المعهد غير علمية ، ونتائجها هي إهانة للسكان ، كما أن استمرار نشاطات المعهد يفضي إلى انحطاط الأخلاق الأمريكية ويهيء للإنقلاب الشيوعي » . وعانى « كينزي » كثيراً من هذه التهجمات ، ولكنه لم يتوقف عن العمل . وفي عام 1956 توفي بنوبة قلبية .

---

1 ـ من المحتمل ، أنها المرة الأولى في التاريخ ، عندما ينشر كتاب من جزئين ومؤلف بشكل أساسي من جداول إحصائية بكمية من النسخ بلغت أكثر من نصف مليون نسخة (المؤلف) .

2 ـ المكارثية : (نسبة إلى مكارثي وزير الثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية في الثلاثينيات) تيار رجعي ساد في الحياة الاجتماعية الأمريكية في أعوام الثلاثينيات حيث منعت كل الكتابات والأعمال الفنية التقدمية (المترجم) .

بيد أنّ وقف تطور العلم محال . فقد وضعت أعمال « كينزي » حجر الأساس للبحوث الاجتماعية الجماهيرية في السلوك الجنسي . فما هي القيمة الأساسية المتضمَّنة في هذه الأعمال ؟ قبل كل شيء أغنت إحصائيا ت « كينزي » العلم بكمية هائلة من المعلومات الجديدة عن السلوك الجنسي وأشكاله المتعددة . وحتّى في يومنا هذا وبعد مرور عدة عقود ، لا تخلو أية دراسة علمية جدية في علم الجنس من مقارنة لنتائجها مع نتائج وأرقام « كينزي » . بالإضافة لذلك ، برهنت أعمال « كينزي » على إمكانية وضرورة التحليل الكمي لهذا الموضوع الصعب . وأخيراً ، رغم أن كينزي حقق مهمته مستعملاً عن دراية مصطلحات موضوعية وبيولوجية على وجه التقريب فقد حسب بدقة وأخذ بعين الاعتبار الكثير من المتغيرات الاجتماعية مثل مستوى التعليم والأوضاع الأسروية والاجتماعية والطبقية والخصوصيات الإقليمية والإنتماءات الدينية وحتّى درجة التدين . وبهذا يكون عمل « كينزي » أنضج اجتماعياً من الكثير من الدراسات التي ظهرت بعده ، وخاصة الطبية منها والتي لم يأخذ مؤلفوها بيعن الاعتبار الوضع الاجتماعي ومستوى التعليم ونمط الثقافة للأشخاص الذين درسوهم ، وذلك عند تحليلهم للمعطيات الكمية حول مستوى وأنماط السلوك الجنسي للبشر في ضوء هذه أو تلك من المتغيرات البيولوجية .

وأثناء قيامه بهذا العمل تطورت آراء ومواقف « كينزي » الخاصة . ففي حين أنّ الجزء الأول المخصص للرجال يبدأ بتوضيح منهجي موضوعي ساذج ، نجد أن الجزء الثاني يتضمن موقفاً نظرياً واجتماعياً ـ أخلاقياً دقيقاً ، موجّهاً ضد النفاق الديني والإختزال البيولوجي على حدٍّ سواء . وتُختتم كذلك الإحصاءات حول السلوك الجنسي بتحليل مقارن ومفصل لشذوذات وفيزيولوجيا ردود الفعل الجنسية المذكرة والمؤنثة والإيغاف (الأرجازم) ، ولعواملها النفسية والعصبية الهرمونية . ولم يكن هذا كله تحضيراً لاكتشافات « ماسترس » و « جونسون » اللاّحقة فقط ، بل وسبقاً لها في حالات كثيرة .

وبالطبع ، احتوت أعمال « كينزي » ومساعديه على نقاط الضعف الخاصة بها

والتي تتعرض للنقد في الوقت الحاضر . وكان أهم عيب في منهج « كينزي » أنه عمل مع أناس متطوعين ، رغبوا أنفسهم بالحديث إليه . ومثل هذه العينة لا يمكن أن تكون نموذجية لا على المستوى الاجتماعي ولا النفسي . فمن بين الناس المستعدين لمناقشة مشاكلهم الجنسية بالتفصيل يوجد ، عادةً ، الكثير من المستغرقين في مشاكلهم الجنسية ، وآخرون ذوو نشاط جنسي زائد (بالمقارنة مع المتوسط) . وبذلك ، عندما يجد الباحثون الآخرون عند مستجوبيهم تجلّيات أقل للسلوك الجنسي المنحرف (كالإتصالات الجنوسية أو الألعاب التناسلية في الطفولة) يبرز السؤال التالي : هل يفسر هذا بأن « كينزي » استجوب محدثيه بصورة مفصلة أكثر مسجلاً اللقطات التي تفلت من النظرة السطحية ، أم أنّ عينة « كينزي » تحتوي على أولئك الميالين للسلوك الجنسي المنحرف ؟ .

نشر معهد « كينزي » في عام 1979 جداول جديدة لنتائج مقابلات تمت في أعوام 1938 ـ 1963 ، وقد أعيد تقييمها بمساعدة الكومبيوتر في الأقسام الأكثر نموذجية من العينة وقد توزعت فيها مادة البحث على أربعة أقسام : 1 ـ العينة الأساسية التي لا تحتوي على الأفراد الخارجين من أوساط جنسية خاصة (أعضاء المنظمات الجنوسية والمومسات والمشاغبون والمرضى النفسيون . . . الخ) ، وتتألف من عدة مجموعات : / 4694 / رجلاً أبيضاً حاصلاً على التعليم الجامعي ؛ / 766 / رجلاً أبيضاً بمستوى تعليمي دون الجامعي ؛ / 4358 / امرأة بيضاء حاصلة على التعليم الجامعي ؛ / 1028 / امرأة بيضاء متعلمة إلى مستوى دون الجامعي ؛ / 177 / رجلاً أسوداً جامعياً و / 233 / امرأة سوداء من خريجات الجامعات كذلك ؛ 2 ـ عيّنة المحكومين : / 2446 / رجلاً أبيضاً محكوماً بسبب جرائم جنسية ؛ / 1024 / من النساء البيض المحكومات بنفس التهمة وبعض المجموعات الصغيرة من العرق الأسود والهنود والأمريكيين اللاتينيين المحكومين كذلك بسبب جرائم من هذا النوع ؛ 3 ـ العينة الجنوسية ، وتتألف من أشخاص عندهم خبرة جنوسية كبيرة (أكثر من / 50 / اتصالاً جنوسياً أو أكثر مع 20 شريكاً جنسياً من الجنس نفسه) من ضمنهم / 946 /

رجلاً ابيضاً غير محكوم و / 782 / رجلاً ابيضاً محكوماً ؛ / 260 / امرأة بيضاء غير محكومة و / 84 / امرأة بيضاء محكومة ومجموعات غير بيضاء من الرجال والنساء الجنوسيين والجنوسيات ؛ 4 ـ مجموعات خاصة مستثناة لأسباب معينة من العينة العامة ؛ الجزء الأهم منها هم / 536 / طفلاً دون سن البلوغ والذين استجوبوا حسب برنامج خاص .

وتعرضت للنقد الحاد كذلك بعض الإجراءات الإحصائية المطبقة من قبل « كينزي » . فاشير خصوصاً إلى الإسراف في التوجه الطبيعي لـ « كينزي » . إذ أن محاولته للوصول إلى دقة أعظمية في التحليل جعلته يفصل تماماً بين المواقف الجنسية النفسية الواعية للناس (رأيهم بهذا أو ذاك من الأوضاع الجنسية) وبين سلوكهم الواقعي . ولكن فصل الأفكار عن التصرفات له حدود لا يمكن تجاوزها . وكذلك فإن تحويل المفاهيم العامة ، والمعيشية خاصة ، إلى مصطلحات عملياتية (أي قابلة للقياس الكمي) يترافق غالباً بنواقص . فمثلاً ، انطلاقاً من اعتباره مصطلح الإيغاف « Orgasm » غير دقيق ، قام « كينزي » بتبديله بمصطلح Outlet(مخرج أو سيلان أو تصريف للتوتر الجنسي) والذي يقصد الرجال به الدفق عادة . ولكن الإيغاف والدفق ليس مرادفين ، ويمكن أن يحدث إحداهما بدون الآخر . وهل يمكن تلخيص الإحساس العاطفي بفعل سلوكي معزول ، خاصة فيزيولوجي ، أو التعبير عن إحداهما من خلال الآخر ؟ وتوجد أشياء لا يستطيع الإستجواب العام التقاطها وهو يمثّل في أحسن الحالات مقياساً غير مباشر لها .

دفعت أعمال « كينزي » إلى إجراء البحوث الاجتماعية والاجتماعية النفسية اللاّحقة في السلوك الجنسي . وفي البداية تابع معهد البحث الجنسي لـ « كينزي » ، الذي ترأسه بعد موته العالم الانتربولوجي « بول غيبهارد » ، البحوث التجريبية التصنيفية لمؤسسه . وبعدها تبدلت النغمة : انتقل الباحثون في المعهد من التعميم الإحصائي البسيط للقاءات الفردية إلى الدراسة الاجتماعية لشرائح منفصلة من المجتمع ولثقافات تحتية عديدة والتي يتشكل في إطارها ويتحقق هذا أو ذاك من أنماط السلوك

الجنسي وليس من النادر أن يجتمع التحليل الاجتماعي مع النفسي . يستند كتاب « آلان بيل » « شخصية عاشق الأطفال » بشكل أساسي على تحليل الأحلام ، أمّا عمل « بيل ومايتبرغ » حول الجنوسة فهو مؤلف على أساس 1500 لقاءً معمقاً . وظهرت ضمن منشورات المعهد أعمال حول تاريخ الجنس وفن الغزل وبحوث أتنوغرافية مقارنة . وباختصار ، فإنّ الجهاز الإحصائي أخضع حالياً لحل مهمات أكثر صعوبة وتعقيداً . ومع هذا يعتبر معهد « كينزي » جزء من إرث هذا العالم فقط . الأهم من هذا كله هو انتشار منهج « كينزي » في النصف الثاني للقرن العشرين ، حيث أجريت استجوابات شاملة فيما يتعلق بالسلوك الجنسي بصورة منتظمة تقريباً في أغلب البلدان الصناعية المتطورة ، وقدّمت هذه الاستجوابات ـ اللّقاءات ـ معلومات قيّمة للأطباء السريريين وعلماء الإجتماع والنفس والمربين . مثل هذه الاستجوابات يمكنها أن تكون على المستوى القومي وتشمل فئات مختلفة من السكان دون سن العشرين عادة وتهدف إلى تمثيلية ما معينة . وبالنظر للتكلفة العالية والعمل الشاق الذي تتطلّبه هذه البحوث فإنها ما زالت قليلة جداً . ومهما بلغت هذه الاستجوابات من الدقة فإنها لا يمكن أن تشمل جميع فئات السكان ، كما أنها تحوي الكثير من المتوسطات ، وتكتمل بالدراسات الخاصة لمجموعات أصغر ولكن أكثر تجانساً يتم اختيارها على أساس جنسي (رجال أو نساء) أو بحسب السن (الشباب فقط مثلاً) أو على أساس الوضع الاجتماعي والمهني (تلاميذ ، طلاب ، عمال) . ورغم أن الدراسة الأخيرة تبدو جزئية فإنها قد تكون أكثر غنىً بنتائجها . تجرى مثل هذه البحوث والدراسات في جميع البلدان الإشتراكية الأوروبية . وفي الاتحاد السوفياتي يمكن تقديم مثال عليها من خلال أعمال « س . ي . غولود » الذي بدأ منذ عام 1964 باستجواب فئات مختلفة من الشبيبة .

بماذا تختلف الاستجوابات الجنسية الحالية عن « تقنيات وحسابات » كينزي ؟

1 ـ عدد الأفراد في عيناتها أقل عادة منه عند « كينزي » ، ولكنها لا تتألف من متطوعين ، بل تمثل عينات عشوائية وعلى أساس مبادىء علمية محددة . 2 ـ بعكس المقابلات التي أجراها « كينزي » تستعمل الآن غالباً طريقة الإستمارات (الأسئلة

القصيرة) فهي تحتاج لجهد أقل وتعطي ، كما بيَّن اختبار خاص ، نتائج معتبرة بنفس الدرجة . وأحياناً تتشارك الطريقتان : فبعد ملء الإستمارات يعاد استجواب مجموعة من أفراد العينة الكبيرة بشكل مفصل . 3 ـ يأمل الباحثون ليس فقط بتحديد السلوك الصريح (التصرفات) بل ومواقف المستجوبين كذلك وعلاقاتهم بهذه أو تلك من الأشكال الجنسية والدوافع ودرجة الإرضاء وغيرها ، لكنَّ هذه الظواهر دائماً منفصلة عن بعضها البعض ويمكن دراستها كل على حدة . 4 ـ يتم إخضاع الجوانب الاجتماعية ـ الثقافية للجنس إلى تحليل دقيق ، ولذلك تعطى أهمية بالغة لتجانس العينات المختارة ولطرائق تجزئتها . . . الخ . وتجري الاستجوابات الكبيرة غالباً بوجود علماء إجتماع مؤهلين وبالتعاون مع معاهد مختصة بدراسة الرأي العام . تعلق أهمية خاصة لدراسة الفروق بين الأجيال المختلفة والتي تسمح برصد ديناميكية السلوك الجنسي مع الزمن وبتحديد الملامح النموذجية له عند أجيال مختلفة . وبهذه الصورة أعيد تقييم معطيات « كينزي » نفسه عند الرجال المولودين قبل عام 1900 ومن 1900 ـ 1909 ، 1910 ـ 1919 ، 1920 ـ 1929 وبعد عام 1930 .

يصاحب إجراء مثل هذه الأبحاث مصاعب منهجية كبيرة كالمسألة المتعلقة بتمثيليَّة وموثوقية العيِّنة أن أي عينة يمكن أن تكون تمثيلية (نموذجية) في جوانب معينة فقط وليس في كل الجوانب . فإذا اختيرت العينة بحسب مؤشر التعليم الاجتماعي ، لا يعني هذا أنها ستكون تمثيلية أيضاً من اجل أعمار أو أنماط أسروية مختلفة . بالإضافة لذلك ، ونظراً لحساسية الأسئلة الجنسية يمتنع قسم غير قليل من الناس عن الإجابة عليها . فمثلاً ، في البحث الأمريكي الذي قام به « مارتون هانت » تمَّ انتقاء العينة الأولية اجتماعياً بصورة دقيقة ولكن 20٪ فقط من أفراد هذه العينة وافق على الإجابة على الأسئلة المطروحة ، وبالتالي فإنَّ نتائج مثل هذه البحوث لا يمكن أن تكون موثوقة إحصائياً ونموذجية ، وتقبل شرطياً فقط .

وكذلك فإن صياغة الأسئلة عملية في غاية التعقيد . ليس الشيء نفسه أن نسأل الشخص في أي سن « بدأ الحياة الجنسية » أو « كانت المعاشرة الغرامية الأولى » أو

« الإتصال الجنسي الأول » . ويمكن للمتحدثين أن يضمّنوا هذه الكلمات معانٍ مختلفة تختلف عمّا يقصده الباحث . وإنَّ الكثير من المصطلحات العلمية غير مفهومة بالنسبة لمعظم الناس ، أما التعابير الدارجة فهي ليست واحدة في أوساط ثقافية مختلفة وغالباً ما تبدو فظّة . والمفاهيم الواسعة مثل « بداية الحياة الجنسية » فضفاضة للغاية : سيفكر البعض بأن المقصود هو الاتصال الجنسي الأول ، ويعتقد آخرون بأنها بداية ظهور الأحاسيس الشبقية أو بدء الإستمناء . ويشوب الغموض كذلك مفهومي « الإتصال الجنسي الكامل » و « الجزئي » . وقد استطاع « كينزي » ومساعديه في أحيان كثيرة ومن خلال اللقاءات المعمّقة من تدقيق المقصود من الأسئلة والأجوبة . وينجم عن الإستمارة الشكلية اشكالات تعقّد بدورها مقارنة معطيات باحثين مختلفين . من المهم كذلك سؤال الإنسان عن تجربته الجنسية الحالية أو في الماضي القريب أو الطلب منه تذكُّر هذه التجربة منذ عدة سنوات خلت . وهذا ضروري خاصة لدراسة الفعالية الجنسية في مختلف الأعمار . ولا تسمح التوجيهات التربوية بسؤال مراهقين في سن (11 ـ 12 سنة) عن خبراتهم الجنسية (الإستمناء مثلاً) ، وكذلك فإنَّ هؤلاء لا يعون الكثير من أحاسيسهم الذاتية . وإنَّ التقييات الذاتية الاستعادية ـ كما برهن علماء النفس ـ ليست موثوقة بدرجة كافية : فأولاً ، قد تخون الإنسان ذاكرته ، فيمكن له أن يتحدث عن حوادث حصلت في سن 15 سنة على أنها حصلت في سن 12 سنة أو على العكس . وثانياً ، « يقوِّم » الفرد لا إرادياً سيرة حياته فيعيد بناء الماضي ليتوافق مع « صورة الـ أنا » الحالية . وبهذا الصدد قد يتذكُّر الشخص الجنوسي الراشد ألعابه الشبقية الجنوسية لأنه يرى فيها منبعاً لسيرة حياته الجنسية النفسية وبالعكس ، عادة ما ينسى الشخص الغيري الجنس (ذو الميل الجنسي الطبيعي نحو الجنس المقابل) مثل هذه الوقائع (إن وجدت) لأنها غير جوهرية بالنسبة له وتتعارض مع وعيه الجنسي الذاتي . وثالثاً ، يترك مستوى « الثقافة » الجنسية أثره على إجابات المستجوب الذي غالباً ما يخفي عن محدثه ما كان بالضبط ويخبره بما يجب أن يكون انطلاقاً من المواقف العلمية كما يراها بالنسبة له شخصياً .

ولذلك ، حتى في البلاد التي تجري فيها الكثير من البحوث على الطريقة الاستجوابية ما زالت المعلومات العلمية غير كافية . فقد كشف المؤلف ، المكلّف بمهمة من وزارة الصحة والتربية والضمان الاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية تتلخّص باستعراض للبحوث الجنسية لسن المراهقة والشباب ، كشف عن عيوب منهجية جدية : كاللانظرية ، والطابع الوصفي لأكثر الأعمال ، وندرة البحوث المتعاقبة التي تعيد دراسة نفس الوسط بعد انقضاء وقت محدد ، والعيّنات الإعتباطية التي لا تتمثل فيها بشكل متساو كل الفئات الإجتماعية أو مناطق البلاد المختلفة ، وهناك الكثير جداً من البحوث المخصّصة للنساء حصراً ، ولا يشار دائماً إلى عمر المستجوب بدقة ، ولا يؤخذ دائماً دور العوامل الإقتصادية - الاجتماعية والطبقية بعين الإعتبار ، والطرائق الإحصائية بسيطة جداً ، ولا تتمثل في الإستمارات المسائل الشخصية والنفسية ويدرس فيها السلوك الجنسي منفصلاً عن عاطفة الحب ومستوى الرفاهية والقيم الإجتماعية العامة ، وهناك القليل من الدراسات التي تستمر فترة طويلة ويخضع فيها نفس الأشخاص للبحث المتواصل الذي بدونه لا يمكن إدراك قوانين التطور الجنسي النفسي . ومهما بلغت أهمية الإستجوابات الجنسية الجماهيرية في إيضاح تبدلات وحتميّات السلوك الجنسي فإنها لا تقدم معرفة موثوقة بصورة مطلقة ونهائية ، ولا بد من تفحصّها في علاقاتها مع المصادر المعلوماتية الأخرى (كالإحصاءات الديموغرافية والسريريات . . . الخ) . ومع هذا فإنّ الأنواع الأخرى من البحوث لا يمكن أن تستقيم من دون الإستجوابات الجنسية هذه .

في البحث عن المشترك

مثله مثل أي علم آخر ، بدأ علم الجنس من نظريات علمية عامة . ثم تمايزت الأساليب والمناهج الخاصة وتوزعت بين الفروع العلمية الموافقة . ففي البداية ظهر علم الجنس السريري ، ثم علم نفس الجنس (ولكن في إطار التحليل النفسي) ، وبعد

« كينزي » كانت البحوث الإحصائية الجماهيرية مرتبطة صميمياً بعلم الاجتماع . وكانت المهمة الرئيسية أمام علم الجنس في سنوات الأربعينيات و حتى الستينيات هي التخلص من الانفعالية و تجميع الوقائع العلمية الموثوقة والمراقبة بإتقان . وكان هذا ممكناً في إطار تخصص علمي صارم فقط ، حيث يشتغل كل علم بأدواته الخاصة غير مهتماً بما يفعله الجيران . وقدّم المدخل المتعدد الاختصاصات نتائج علمية باهرة . فأعدّ علم الوراثة طرائق حاسمة وبسيطة نسبياً لتحديد الجنس الصبغي ؛ واكتشف العديد من التشوهات الوراثية الجنسية بدءاً من متلازمة « تيرنر » (شيريشفسكي - تيرنر) عام 1938 ومتلازمة « كلاينفلتر » عام 1942 وانتهاء بالتشوهات المكتشفة في نهاية الستينيات وبداية السبعينيات ، مماسمح ببدء الدراسة المنهجية لمحتمات الانتماء الجنسي العميقة وبتأثيراتها على الفروق الجنسية والسلوك الجنسي عند الحيوانات والبشر . وتوصّل علم الغدد الصماوية إلى تحديد مستوى الهومونات الجنسية ومتابعة آثارها بشكل مفصل على التمايز الجنسي للعضوية وخاصة في المرحلة الجنينية من التطور ، ويدرس كذلك بشكل واسع تأثير الهرمونات على النفسية والسلوك ومنه السلوك الجنسي عند الحيوانات وعند الإنسان . وقامت الفيزيولوجيا العصبية باكتشافات مثيرة تشمل التمايزات الجنسية في الدماغ ومناطقه المشرفة نسبياً على ردود الفعل الجنسية . وكشف علم الجنين عن قوانين ومراحل التمايزات الجنسية في الحياة الجنينية ، أمّا البيولوجيا التطورية فبيّنت قوانين التطور بالنسبة للسلوك المتعلق بالحفاظ على النوع والجنس وخصوصية تجلّيها عند أنواع حيوانية مختلفة . وقام طبيب النساء الأمريكي « أوليام ماسترس » وعالم النفس « فيرجيني جونسون » بأول دراسة مخبرية للعملية الجنسية . . . الخ . وهكذا فإنّ علم الجنس المعاصر لا يمكنه أن يتطور بدون مشاركة الفروع العلمية الأخرى كعلم الخلية الوراثية والبيولوجيا الجزئية والكيمياء العصبية وعلم الغدد الصم النفسي وعلم المناعة ، وعلم الفيزيولوجيا النفسية وعلم النفس التفريقي الاجتماعي في أعمار مختلفة . وليست العلوم الاجتماعية أقل أهمية من أجل علم الجنس .

ولا يجوز فهم الجنس البشري خارج المجتمع والثقافة . ويصح العكس أيضاً

بنفس الدرجة : فلا يمكن فهم نمط حياة المجتمع بدون معرفة خصائص السلوك الجنسي للأفراد الذين يتكون منهم ،وكيف يعون ويرمّزون هذا السلوك والفروق بين الجنسين نفسها في الثقافة . وكما كتب « انجلز » : « وفقاً للفهم المادي فإنّ العامل الحاسم في التاريخ هو في نهاية المطاف ،إنتاج وإعادة إنتاج الحياة نفسها . ويتمثّل هذا في ناحيتين . فمن جهة إنه إنتاج وسائل الحياة : المواد الغذائية واللّباس والمسكن وما يتطلبه من أدوات ؛ ومن جهة أخرى ، إنتاج الإنسان نفسه واستمرار النوع » [المجلد الثاني ؛ صفحة 25 ـ 26] . لا يفترض الجانب الثاني بحث أشكال الزواج والأسرة فحسب ، بل والسلوك التوالدي Reprodoctif بشكل خاص (نسبة الولادات . . . إلخ) ، كذلك المعايير والدوافع الثقافية ـ الاجتماعية التي تضبطه تواجهنا هنا مهمة مزدوجة :

1 ـ فهم كيف تكوّن العلاقات الاجتماعية وتبدّل من صورة العلاقات المتبادلة بين الجنسين ، ومن ضمنها ردود الفعل الشبقية و

2 ـ إيضاح كيف يؤثر الجنس وأشكال تجليّه الملموسة على تطور العلاقات الاجتماعية والثقافية .

إنّ نطاق البحث الثقافي الاجتماعي لعلم الجنس كان قد ظهر في أواخر القرن التاسع عشر واهتم به متحمسون هواة في بادىء الأمر . أمّا التوجه نحو هذا الموضوع من قبل الاتنوغرافيين المحترفين . فقد ارتبط جزئياً بتأثير « فرويد » و « الانتروبولوجيا النفسية » (أو بالأحرى ـ نظرية « الثقافة والشخصية ») ، لأن الكثير من موضوعات التحليل النفسي تتعزّز بالاستناد إلى المعطيات الإتنوغرافية (وهي غير مبرهنة غالباً) . وكان على الإتنوغرافيين اختبار هذه النظريات في واقع ملموس . فهل كان بإمكان الفرويدية بصورة مطلقة ،دراسة نمط حياة شعب ما بدون أخذ نمط تقسيم العمل الجنسي بعين الاعتبار عند هذا الشعب وكذلك رموزه الجنسية وعلاقات الزواج والأسرة والأخلاق الجنسية ؟ . وظهرت في سنوات العشرينيات والثلاثينيات عدة بحوث هامة مكرّسة خصيصاً للسلوك الجنسي ، وأهمها أعمال الإتنوغرافي وعالم الاجتماع الإنكيزي

« برونسلاف مالينوفسكي » والانتروبولوجية الأمريكية « مارغريت ميد » . وتمّ تسليط الضوء بشكل واسع على هذه المسألة في الكتابات والأعمال الاتنوغرافية المتعلقة بدراسة تاريخ الدين والثقافة . وبقيت البحوث في علم الجنس الاجتماعي والثقافي في الفترة بين الحربين العالميتين نادرة ومبعثرة . وبفضل جهود الاتنوغرافيين بعد الحرب العالمية الثانية اغتنى هذا العلم بشواهد ملموسة حول خصائص الرموز الجنسية والسلوك الجنسي عند الكثير من شعوب العالم . وبهذا ظهرت حاجة ماسة لتعميم أكثر جديّة لهذه المعطيات .

في عام 1949 ساق العالم الإتنوغرافي الأمريكي « جورج مردوك » في جدول واحد مواد عن طرائق الضبط الاجتماعية للسلوك الجنسي عند شعوب مختلفة . أمّا « ك . فورد » و « ف . بيتش » فعمّموا كمّياً معلومات عن السلوك الجنسي في حوالي 200 مجتمعاً بشرياً وتمّ تقديم تحليلٍ مقارنٍ للعلاقات المتبادلة بين الجنسين وسلوكهما الجنسي في سبع مجتمعات مختلفة في كتاب « المرأة والرجل » لـ « م . ميد » وكرّست الجمعية الانتربولوجية الأمريكية عدة ندوات علمية مشتركة للسلوك الجنسي .

وتعلّق أهمية كبيرة للبحوث الإحصائية الثقافية المتصالبة حول مسائل النوع والجنس . وبنتيجة جمع وترميز المعلومات الثقافية الجاهزة عن مختلف نواحي الحياة في / 186 / مجتمعاً بشرياً من جميع أقاليم الكرة الأرضية ومن مختلف النظم الاجتماعية (باستثناء البلدان الصناعية المتطورة) ، أصبحت هناك إمكانية لتفسيرها الكمي من قبل العلماء . وتعرّضت للدراسة الإحصائية أشكال تقسيم العمل بين الجنسين ، وكذلك الاختلافات في طرائق التأهيل الاجتماعي (المَجْمَعة) سواء في سلوك الصبيان أو البنات ، والاحتفالات التي تجري للتأهيل (مُسَارة Incitiation) وطقوس الفترة الانتقالية المرتبطة بالبلوغ الجنسي عند المراهقين ، والمعايير المتعلقة بالعلاقات الجنسية قبل الزواج وخارجه ، والعلاقة المتبادلة بين المواقف الجنسية والسلوك الجنسي ، والمحرمات النوعية والممنوعات الخاصة بالجنس المؤنث ، . . . إلخ .

بيد أنّ هذا النمط من الدراسات يتضمّن ، بدون شك ، نقاط ضعف منهجية حيث تطرح الأسئلة التالية : إلى أية درجة تعتبر العيِّنة نموذجية للمجتمعات المقارنة ،

والمعلومات الأولية عنها موثوقةً ؟ ؛ هل يحسب نظام الترميز حساباً للتبدلات والتغيرات التي تحصل في العادات والتقاليد الموصوفة ؟ ؛ ألا تضيع أثناء ذلك الخصائص الفردية الجوهرية للثقافات ؟ ؛ ما هي علاقات السبب ـ النتيجة القيِّمة التي تختبىء خلف العلاقات الإحصائية ؟ . . . وغيرها . ومع هذا تقدِّم هذه الدراسات معلومات ثمينة جداً ذات طابع عام والتي بتجليها المقارن ، إلى جانب البحوث الإختصاصية المعمَّمة لثقافات ملموسة ، تساعد على فهم تباينات وقوانين التطور التاريخية للجنس البشري .

ولا يتخلَّف علماء الاجتماع عن الإتنوغرافيين . وإن علم اجتماع الزواج والأسرة الذي درس في نطاقها السلوك الجنسي تقليدياً ، هو واحد من أكثر فروع علم الاجتماع المعاصر إنتاجاً . في السنوات الأخيرة وبتأثير الحركة النسوية انبثق علم اجتماع الأدوار الجنسية الذي يدرس قوانين التقسيم الجنسي للعمل والتطورات في الوضع الاجتماعي وطبيعة نشاط الرجال والنساء وما يرتبط به من الأنماط (القوالب-Stereotypes) الاجتماعية النفسية . ومنذ عام 1975 تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية مجلة علمية جامعة « Sex roles » (« الأدوار الجنسية ») . وقد أصبح السلوك الجنسي ، خصوصاً بعد كينزي » موضوعاً دائماً في البحوث الاجتماعية .

وتقدم البحوث الاجتماعية والديموغرافية معلومات ملموسة عن طراز حياة الأسرة والحياة الزوجية في أوساط اجتماعية مختلفة وعن ديناميكية السلوك الجنسي والمواقف المعيارية الموافقة ؛ فبدون هذه المعلومات يضطر المربون والأطباء للعمل بشكل عشوائي ، بل أن نشاطهم قد يعطي نتيجة مناقضة لما يتمنوه . بالإضافة لذلك ، تسمح مثل هذه الأبحاث بتقصي الاتجاهات العامة للتطور من جيل لآخر على امتداد فترات تاريخية مديدة .

إلّا أن الدراسات الاجتماعية المنهجية ظهرت نسبياً قبل فترة وجيزة فقط فلأجل فهم الاتجاهات التاريخية الطويلة الأمد لا بدَّ من دراسات تاريخية رصينة . وحتّى بداية السبعينات عرض تاريخ الجنس والحب الجنسي ، بصورة رئيسية ، في كتب شعبية عامة وفي الأعوام الأخيرة فقط بدأ علماء التاريخ المحترفون بالاهتمام بهذه القضايا . وترتبط

أبحاث هؤلاء بشكل وثيق مع تاريخ الأسرة والزواج وتشمل مجموعة واسعة من البلدان والحقب : من الكلاسيكية الرومانية اليونانية والصينية القديمة وحتّى المعاصرة . وتقدم معلومات ثمينة بشكل خاص الديموغرافيا التاريخية التي ترصُد تبدلات معدلات المواليد وحركية (ديناميكية) الولادات خارج الزواج في حقب تاريخية مختلفة ، مثل الأعمال الكثيرة للعالم الانكليزي « بيتر لاسليت » وصار يدرس من جديد تاريخ الفن والأدب الشبقيين . وظهرت أعمال ذات طابع تعميمي حول تاريخ الانحرافات الجنسية وكثير من البحوث المتعلقة بهذا الموضوع . وبسبب نشوء دراسات مشتركة في تاريخ الطفولة خلال أعوام الستينيات ، صار يدرس كذلك وبشكل متسارع تاريخ المُجْمَعة (التكيف الاجتماعي ـ Socialisation) والتربية الجنسية . إلى جانب التاريخ هناك الأدب والفلكلور . ونجد في أعمال العالم الفلكلوري السوفييتي البارز « ف . يا . بروب » « البيت الرجّالي في الحكايات الروسية » ، و « طقوس الضحك في الأدب الشعبي » و « أوديب في ضوء الأدب الشعبي » وأعمال أخرى متابعة للعلاقة المتبادلة لدوافع الموت والولادة وأهمية بعض الرموز الجنسية في الإبداع الشعبي . . . إلخ . ويبحث « م . م . باختين » في عمله الكلاسيكي عن « رابل »[1] تطور صور ازدراء الجسدي وقواعد النطق المحتشمة في العصور الوسطى وعصر النهضة . . . إلخ ، بالإضافة إلى مسائل أخرى كثيرة .

باختصار ، لم يبق أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية بمنأى عن دراسة نواحي محددة للجنس البشري . بيد أنّ المصاعب هنا ، كما هو الحال في العلوم البيولوجية ، أكثر من تكون كافية .

ويعتبر الجنس في أغلبية المجتمعات قضية ودية (حميمة) غير قابلة للملاحظة المباشرة . وبذلك يضطر العلماء للاستعانة بخدمات المخبرين وتحليل المعطيات غير المباشرة (كالأساطير والفنون والطقوس . . . . إلخ) . وإنّ السلوك المدان من قبل الثقافة غالباً ما يأخذ أشكالاً تنكرية ويحدُّ كذلك من درجة انتشاره ؛ ومن غير المقبول

1 ـ رابل : شخصية شعبية في الفلكلور الروسي . المترجم .

عموما الكلام عن بعض جوانب الجنس . فإذا تحدّث المخبر مثلاً أنّ الأطفال يولدون لا من جراء العملية الجنسية بل نتيجة لاتصال المرأة بشيء ما مقدس (وقد وجد مثل هذا التصور عند الكثير من الشعوب) ، فهذا يعني بوضوح بالنسبة للإتنوغرافي أن الأمر يتعلق بتصور خرافي . ولكن ما العمل إذا أنكر المخبرون وجود الجنوسة والأستمناء في مجتمعاتهم ؟ فهل هذه الوقائع غير معروفة بالنسبة لهم أم أنهم ببساطة ينكرونها بسبب ممنوعات دينية أو أخلاقية ؟ وحتّى الباحث الإتنوغرافي نفسه لا يخلو موقفه من تحيّز . وإنّ الأسئلة التي يطرحها وكيفية صياغتها ترتبط بشكل وثيق مع تصورات ومعايير ثقافته الأم . كما أنه ليس من السهولة التخلص من العرقية (Ethnocentrism) اللاإرادية (الميل لتفهم وتقييم العادات والتقاليد الغريبة انطلاقاً من نماذجها الذاتية المعتادة) .

ومن الضروري أيضاً أخذ تعدد أشكال موضوعات البحث بعين الاعتبار . فليس الشيء نفسه أن تتم دراسة :

1 ـ السلوك الواقعي لأعضاء مجتمع معين ، وأشكال النشاط الجنسي التي تميّزهم ، أو

2 ـ مواقفهم وتوجهاتهم القيمية ، وما هي علاقتهم بهذه الظواهر ، أو

3 ـ المؤسسات الاجتماعية التي في إطارها تجري وتتنظّم الحياة الجنسية مثل أشكال الزواج والأسرة ، أو

4 ـ الرموز الثقافية التي يعون من خلالها أهمية الجنس وتجلياته ، مثل التصورات الدينية عن طبيعة الفروق بين الجنسين وماهية الممارسة الجنسية . . . إلخ . أو أخيراً ،

5 ـ الطقوس والتقاليد التي بواسطتها تتشكل الممارسات الموافقة (كطقوس الزواج واحتفالات التأهيل « المسارّة » ، الاحتفالات التهتكية « Orgiaque » ، (وهذه الممارسات التي تتوقف عليها أهمية الطقوس والتقاليد عند المشاركين . إنّ جميع هذه الظواهر واحدة في أهميتها وارتباطها المتبادل ، ولكن دراستها تتطلب مجموعة مختلفة من المصادر وطرائق تفسيرية متعددة .

وعلى الرغم من نزعات التكامل القوية ، فما زال التشتت كبيراً في عمل العلوم

الاجتماعية والإنسانية كما هو الحال في عمل العلوم الطبيعية . فالحدث نفسه يفسر من قبل عالم الاجتماع من زاوية الأهمية التي يتحلّى بها لأجل استمرار قيام العضوية الاجتماعية المعنية بوظائفها بشكل طبيعي ، أمّا عالم النفس فيفسّره من زاوية تأثيره على تطور الشخصية ، وينظر عالم الثقافة إليه من ناحية محتواه الرمزي . . . إلخ . وبقدر ما تتعمّق الدراسات في مختلف الفروع العلمية تبرز الحاجة الملحّة في التعاون والتآزر بين هذه الفروع العلمية المتقاربة ، بل وحتّى بين فروع معرفية بعيدة كل البعد عن بعضها البعض . فلا حتمية الانتماء الجنسي ولا نفسية الفروق ولا قوانين السلوك الجنسي ولا الشذوذات الجنسية النفسية يمكن أن تكون مفهومة إذا بقيت في نطاق علم واحد أو حتى في نطاق فرع معرفي بكامله . وبرزت في الطب بحدة المسألة الآتية : من يجب أن يعالج المرضى المصابين باضطرابات جنسية ؟ وكيف ؟ كاضطراب النعوظ (Erection)[1] والدفق (Eculation) . وبما أنّ هذه الأمراض عُولجت في السابق من قبل اختصاصيين بالأمراض البولية وأمراض الغدد الصم والأمراض العصبية والنفسية ، فقد اعتُقد لزمن طويل أنه لا داع لعلم الجنس المرضي كاختصاص طبي مستقل . وبعد أن أثبتت الخبرة العملية خطأ مثل هذا الموقف ، حلت محلّه فرضية « الخدمة المركبة » كما أطلق عليها « . س . فاسيلتشنكو » ، حيث يقوم اختصاصي الأمراض الجنسية بدور مراسل منسق للاتصالات مع علوم الأمراض البولية والغدد الصم والأمراض العصبية والطب النفسي . إنّ هذه الفرضية ، إلى جانب كونها غير مريحة تنظيمياً ، تفترض أن كل الاضطرابات الجنسية هي مظاهر ثانوية ونتيجة لأمراض أخرى وهذا ما يتناقض بوضوح مع الخبرة السريرية . من هنا يأتي المدخل الجهازي الذي اقترحه « غ . س . فاسيلتشنكو » بفرز علم الجنس المرضي كفرع علمي سريري مستقل يبقى على ارتباطه الوثيق بالعلوم « الأم » ولكنه لا يذوب فيها وله نظامه المفهومي الخاص وطرائقه الخاصة أيضاً . . . . إلخ . وقد تمّ اعتماد هذا المبدأ رسمياً في السنوات الأخيرة من قبل الأوساط الصحية السوفيتية ، ولهذا القرار مبرراته الكاملة . ويدور الحديث في

---

1 ـ النعوظ erection : انتصاب العضو التناسلي المذكر (القضيب) ـ المترجم .

المصطلحات العلمية الفلسفية عن الانتقال من المدخل الوحيد الإختصاص إلى المركّب ومنه إلى المدخل الجهازي ـ التكاملي .

وتلاحظ مثل هذه النزعة في علم الجنس أيضاً . ولكن بما أن عدد الفروع العلمية المدعوة للتنسيق فيما بينها أكثر هنا بكثير ، تبرز مصاعب منهجية أيضاً . وإن كل مراكز الدراسات الجنسية والجمعيات العلمية تقريباً في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية (وأكثرها شهرة هي الأكاديمية الدولية للبحوث الجنسية التي تأسست عام 1975) ارتكزت منذ البدايه على تعاون فروع علمية مختلفة موحّدة الأطباء والبيولوجيين وعلماء النفس وعلماء الاجتماع . وإلى جانب المجلات الجنسية التقليدية الجامعة ، والتي هي في الغالب طبية ـ بيولوجية ، ظهرت منشورات ذات طبيعة مشتركة كـ « مجلة البحث الجنسي »(*)(منذ عام 1965) ، و « أرشيف السلوك الجنسي »(*) (منذ عام 1971) . . . إلخ . وإنّ أكثر الكتب المدرسية العالمية في علم الجنس تتميّز بهذه الطبيعة المركبة . ولكن يحدث أن توضع نتائج مختلف العلوم جنباً إلى جنب وغالباً ما لا تتم مقارنتها مع بعضها البعض . ويسبّب هذا استياءً شديداً لدى العلماء فيما يتعلّق بعلم الجنس النظري وتتوجه مساعيهم بالتالي نحو تكامل هذه النتائج .

في مختلف البلدان ، ومنها الاشتراكية ، توجد أشكال متعددة لتنظيم علوم الجنس والدراسات الجنسية . فمثلاً ، في جمهورية ألمانية الديمقراطية تشرف عليها جمعية الصحة الاجتماعية وجمعية تنظيم الأسرة معاً ، وفي جمهورية بولندا الشعبية هناك الرابطة البولندية لتطوير الأسرة . وفي كوبا لعب اتحاد النساء الكوبيات دوراً هاماً في ظهور علم الجنس وفي التربية الجنسية أيضاً . . . إلخ .

بيد أنّ الشيء الرئيسي ليس المصاعب التنظيمية فقط ، بل تعدّد مهمات مادة علم الجنس نفسها وإن تعاريف مادة علم الجنس المعاصرة ما زالت غير دقيقة وموضوعية كما

---

* ـ باللغة الإنكليزية في الأصل « jornal of sex research » و « Archives of sexual Behavior » على التوالي المترجم .

كان الأمر زمن « ي . بلـ.خ » فحسب « ب . غ . أنانييف » علم الجنس هو « دراسة قوانين ا لتشكل الجنسي في تطورها عند الأنواع الحيوانية المختلفة وعند الإنسان ، ومن ضمنها القوانين الطبيعية والفيزيولوجية والنفسية لهذا التشكل عند الإنسان والمرتبطة بتاريخ تقسيم العمل الطبيعي والزواج والأسرة والتربية وغيرها » . أمّا « موني » فيرى أنه علم « عن التشكل والتمايز الجنسيين وعن الاتحاد الزوجي الشبقي (الجنسي) » . ورغم أنه يستثني من هذا التعريف التمايز الاجتماعي عند الجنسين (تقسيم العمل الجنسي) ، معتقداً أن علم الجنس يتعلق بمعطيات نفسية ـ سلوكية وجسدية يبقى مجال البحث هنا واسعاً بما فيه الكفاية . ويميّز « ماني » تبعاً للأداة والطرائق الملموسة ما بين عدة « مباحث علمية » لعلم الجنس ، مثل علم الجنس الوراثي والتشكلي والهرموني والهوموني العصبي والتشريحي العصبي والكيميائي العصبي والدوائي والسلوكي والثقافي الاجتماعي والحملي ـ اللاّحملي والنسائي ـ الولادي الوالدي ـ Parentales (الذي يتعلق بالأحاسيس الوالدية ورعاية الأطفال ـ المؤلف) . وعلاوة على ذلك ، فإن مراحل الحياة المختلفة تتوافق مع مراحل جنسيةمحددة : مضغية ـ جنينية وطفولية مبكرة وطفولية ومراهقية (سن البلوغ) وشبابية وراشدة وكهلة.ويضع العالم البلغاري « تيودور بوستاند جييف » المسألة بشكل أوسع ، حيث يضمّن مادة علم الجنس لا الجنس فقط بل وكل مركّب العلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الجنسين . ولكن كلما اتسع تفسير مادة علم الجنس ، صار من الصعب التنسيق بين الفروع العلمية الخاصة المكونة لها ناهيك عن تكاملها . نحن إذن موجودون بين مطرقة الاختزال الطبي ـ البيولوجي الذي يفصل الجنس عن سياق التمايز الجنسي والعلاقات الاجتماعية المتبادلة بين الجنسين ، وبين سندان « الخطّة العمومية » التي تتناسى الخصوصية الأداتية والمنهجية للعلوم الملموسة . ويفضّل المدخل التكاملي على المركّب فقط عندما لا يخرج كمرسوم بل ينبع من الحاجة الداخلية للعلم نفسه . وبدل النزاع حول مادة (موضوع) علم الجنس وعلاقته بالعلوم الأخرى ، سنرى كيف يوضع هذا الموضوع الخلافي في الأقسام الرئيسية للمعرفة العلمية المؤلّفة لمثلث علم الجنس ، أي في البيولوجيا والعلوم الاجتماعية وعلم النفس .

الاسس العلمية الطبيعية لعلم الجنس

الجنس ومحتماته

ما هو الجنس ؟ إن كلمتي « الرجل » و « المرأة » تقترنان بميزات متعددة الأشكال تشمل الاختلافات في الوظيفة التوالدية وبنية الجسم والطبع ونوع العمل والوضع الاجتماعي وسوى ذلك كثير . ويبدو هذا التناقض شاملاً وعميقاً لدرجة أن البعض يرى فيه مصدراً لكل المتناقضات الثنوية (المزدوجة) الراسخة في الوعي البشري . وغالباً ما يخلطون خاصةً بين الجنس البيولوجي والجنس النحوي (الصيغة النحوية) . فقد جاء في أحد الكتيبات الفيزيولوجية التربوية : « حتى في اللغات البدائية تنتمي كل مادة لجنس معين . كما أن التفكير والمنطق غير ممكنين بدون الصيغة الجنسية » . واحسرتاه ، مثلما عبر بحذاقة أحد علماء اللغة المعروفين ، إن الجنس النحوي هو على أية حال أحد المفاهيم المعقولة ولكنه يحتوي على الكثير من المفاجئات غير المتوقعة . ففي لغات كثيرة ، مثل الجورجية ، لا توجد أية أجناس نحوية ، ويطبق هذا المفهوم في بعض اللغات على الأسماء العاقلة فقط ؛ وفي لغات أخرى كالروسية يوجد المحايد إلى جانب المذكر والمؤنث . وأحياناً لا يتوافق الجنس النحوي للكلمة والكائن الدالة عليه . فمثلاً ، الكلمة الألمانية « Das weib ـ المرأة » هي جنس محايد ، كما أن كلمة « بقرة » في الكثير من اللغات الإفريقية مذكرة . . . . إلخ . وهكذا لا يجوز خلط مفهومي الجنس البيولوجي والنحوي .

ولا ينطوي مفهوم الجنس في العلوم البيولوجية والاجتماعية والنفسية على المعنى نفسه . ويعرَّف الجنس بالمعنى الدقيق بأنه « جملة الخصائص التشكُلية والفيزيولوجية العضوية التي تؤمن التكاثر الذي يتلخَّص جوهره بالإلقاح في نهاية المطاف » . إلاّ أن كلمات « الجنس » و « الانتماء الجنسي » أو « التماثل الجنسي » لها معانٍ واسعة يُفهم منها الوضع الاجتماعي والبيولوجي الخاص للفرد ، كرجل أو امرأة وذكر أو أنثى ، القائم

على أساس بنية الأعضاء التناسلية وأحياناً على أساس ميزات جسدية وسلوكية . ويمكن لهذه « الخصائص الجنسية » المفهومة بشكل موسع أن لا تكون مرتبطة دائماً بالوظيفة التوالدية (الإنجاب) . وهناك تدقيق اصطلاحي آخر . فمع أنّ كلمة « الجنس كنوع » و « الجنس بالخاصة » مترادفتان شكلياً ، فغالباً ما تمتلك هذه الأسماء والصفات المشتقة منها معاني متباينة . « الجنس البيولوجي أو العام » هو مجموعة الصفات الدالة على ظواهر مرتبطة بتمايز واختلاف الرجل والمرأة ، في حين يُقصد بـ « الجنس » و « الجنسية » بمعنى أضيق مجموعة الأحاسيس والعلاقات الشبقية الجنسية[1] .

لكن المسألة ليست ببساطة خلافاً في المصطلحات . وكانت النظريات المبكرة في علم الجنس قد اعتبرته بيولوجياً وغريزيّاً ، ولكن ما هي « الغريزة الجنسية » ؟ اعتقد بعض المؤلفين ، بدءاً من « بلوتر » و « مونتين » وانتهاءً بالعالم الفرنسي « شارل فيري » في نهاية القرن التاسع عشر ، أنها ، على الأرجح ، حاجة العضوية للتخلّص من منتجات نشاط الغدد الجنسية ، أي من النطف . ويُشبه الدفق في هذه الحالة التبول والتغوط ، أمّا المرأة فيُقدّم دورها سلبيّاً كـ « وعاء » . والنموذج الأكثر تعقيداً اعتبر السلوك الجنسي تجليّاً لغريزة التوالد ، والحاجة إلى استمرار النوع التي تميز ليس الرجال فقط بل والنساء أيضاً . هكذا بالضبط فسّر « الغريزة الجنسية » عالم النفس الانكليزي - الأمريكي « أوليام ماك دوغال » . ما هي دوافع السلوك الجنسي وكيف تعلّل بعض أشكاله التي لا ترتبط باستمرار النوع ، بشكل جلي ، مثل الإستمناء ؟ إنّ نظريةالإنتخاب (الإصطفاء) النوعي لداروين ، ومع إقرارها بأن أساس السلوك الجنسي هو الحاجة للتوالد ، تساءلت في الوقت نفسه حول طبيعة المكوّنات الجمالية والشبقية والنفسية للرغبة : لماذا يكون موضوع الجنس هذا الكائن وليس ذلك ؟ بيد أن

---

1 ـ هكذا يفصلون مفهومي « Sex » و « gender » (جنس عام ـ نوع) في الأدب اللغوي الانكليزي ، ولكن هذا الفصل ليس مستخدماً من قبل الجميع . المؤلف .
ـ ويشبه الوضع في اللغة العربية أعلاه ، لذلك سنستعمل ، كلمة الجنس بهذين المفهومين في الغالب بقدر ما تسمح به إمكانيات اللغة ومعرفتنا بها . المترجم .

هذه النظرية لا تقدم إجابات على الأسئلة المطروحة . ومع تطور البيولوجيا تركت النظريات الشاملة لـ « الغريزة الجنسية » مكانها بالتدريج لأسئلة أكثر ملموسيةً ودقةً . 1 ـ بماذا يُعرَّف التمايز الجنسي وأي وظيفة يحقق ؟ ؛ 2 ـ ما هي آليات التهييج الجنسي البيولوجية ؟ ؛ 3 ـ وما هي قوانين تطور هذه الآليات عند الأنواع الحيوانية المختلفة ؟ وبماذا يختلف السلوك الجنسي عند الإنسان عن السلوك التوالدي عند الحيوانات ؟ .

يتعلق السؤال الأول قبل كل شيء بكفاية الأعضاء التناسلية . ومع أن التمايز الجنسي يتكشّف في نطاق واسع من الفروق الجسدية والسلوكية،فإن جوهره يكمن في خصائص عملية التكاثر . ويؤمن التكاثر الجنسي بصورة سريعة للغاية نشوء تركيبات وراثية جديدة والتي بدورها تؤمن لحامليها التكيف مع ظروف الوسط المتغيرة ، ويقوم الذكور والإناث بوظائف مختلفة في هذه العملية . فبعد تحليله لمعطيات علم الوراثة في ضوء الأوضاع العامة لنظرية المعلومات الوراثية ، واستناده على آراء « ي . ي . شمالغاوزن » ، توصّل « ف . أ . غيوداكيان » إلى الاعتقاد بأن عملية الإنتاج الذاتي لاي جهاز بيولوجي تتضمّن نزعتين متعارضتين : التوريث ـ العامل المحافظ الذي يحاول الإحتفاظ بالصِّفات الوالدية عند الذرية كما هي بدون تغيير ؛ والتغيير الذي بفضله تنشأ صفات جديدة . ويبدو وكأن الأناث يجسِّدن « الذاكرة الوراثية » الدائمة ، والذكور ـ « الذاكرة » العملية والمؤقتة للنوع . وإنَّ أي سيل للمعلومات من الوسط (تغيير الظروف الخارجية) يدركه في البداية الذكور اللذين يرتبطون صميمياً مع الوسط الخارجي . ولكن بعد فرز التطورات الثابتة عن المؤقتة والعشوائية ، تسقط المعلومة الوراثية داخل « النواة الخاملة » للسكان ، المحمية من الذكور ، والمتمثلة بالإناث . وبما أن الذكور يجسِّدون في أنفسهم مبدأ التغيير فإنَّ كل الصفات الجديدة في تطوير النوع تظهر في البداية عندهم ، وبعدئذٍ يتم انتقالها للإناث اللواتي ، على العكس ، يتمثلن كل الأشكال البدئية والأصلية (الرديئة) . انطلاقاً من هذه القضايا العامة يفسِّر « ف . أ . غيوداكيان » مجموعة من الفروق البيولوجية (مثل ارتفاع نسبة الموت عند الذكور بالمقارنة مع الإناث) ويستنتج نتائج هامة ذات طبيعة عملية . إن نظرية

« غيوداكيان » تلفت النظر ببنائها المنطقي وباستنادها إلى معطيات علمية موثوقة . ومثل أية نظرية عامة ، لا تدعي هذه النظرية تفسير كل جوانب ثنائية الشكل الجنسية .

ولا بد من القول بأن ثنائية الشكل الجنسية لا تتظاهر بشكل واحد عند أنواع مختلفة ، ولا تتباين فقط درجة الفروق بين الذكور والإناث بل ، وفي بعض الحالات ، تختلف طبيعة هذه الفروق ومنحاها . فعند أغلبية الأنواع يكون الذكور أضخم وأهيب من حيث مظهرهم الخارجي وأكثر عدوانية من الإناث ، ويحتكرون المداعبة كذلك . لكنَّ لهذه القواعد استثناءات . ويتباين بشدة « تقسيم العمل » الجنسي . مثلاً ، عند بعض الطِّرفيات يصادف أن يكون « الجنود » ذكوراً فقط ، وعند مجموعات أخرى ، يكونون فقط من الإناث ، وعند مجموعة ثالثة لا تنقسم الوظائف حسب الجنس . إنَّ فهم الوظائف التطورية لثنائية الشكل الجنسية عند الحيوانات ، لا يجيب بحد ذاته على السؤال حول كيفية ودقة تجلي هذه الثنائية في مجالات مختلفة من النشاط الحياتي للكائن . وتؤكد البيولوجيا الحديثة وجود فروق جنسية عميقة في جميع مستويات التطور والارتقاء الوظيفي للعضوية . وكذلك تعارض التصنيف المبسط وتقسيم كل الصفات إلى مجموعتين قطبيتين ـ مذكرة (ذكورية) ومؤنثة (أنثوية) ، انطلاقاً من مبدأ « إمّا هذا وإمّا ذاك » . وفي الواقع ، فإلى جانب هذه الصفات المتعارضة والتي تستثني بعضها البعض (لا يمكن للكائن في الحالة الطبيعية أن يمتلك في الوقت نفسه أعضاء تناسلية مذكرة ومؤنثة) ، يوجد الكثير من الحالات التي تسمّى ثنائية الجنس (خنثوية) والتي تمتلك صفات كلا الجنسين بالتساوي . ويصح هذا سواء بالنسبة للصفات الجسدية أم السلوكية والتي لا تكون متوافقة في الغالب .

تعتبر كل العضويات من الناحية الوراثية ، وحتّى المنقسمة منها لجنسين ثنائية الجنس ـ خنثوية[1] . وذلك لأنَّ مضغاتها تتلقّى المعلومات الوراثية التي تتضمَّن إمكانية

---

1 ـ إنَّ لمصطلح Bisexualisme معنيين مختلفين تماماً ، من جهة ـ الثنائية الجنسية : أي امتلاك الصفات الجسدية والنفسية والسلوكية لكلا الجنسين (خنوثة حقيقية) ، ومن جهة

تطور هذه الصفات إلى ذكرية وأنثوية على السواء وهناك بعض الأسماك (من فصائل الـ Serranidaeالفَرْخ و Scaridaeو Labridae (القادرة على تبديل جنسها التشكلي مرات عديدة وفي كلا الإتجاهين تبعاً لجنس الشريك . فمثلاً ، تعيش أسماك labrides dimidiatusفي المناطق الاستوائية من المحيط الهادي على شكل مجموعات مؤلفة من ذكر واحد وحريمه يشغلون منطقة مشتركة ؛ ولا يسمح الذكر للإناث بتغيير جنسها ، ولكن ما إن يموت حتى تغير الأنثى الأقوى (السائدة) جنسها وتصبح ذكراً هو السيد الجديد للحريم . وقد تمكن علماء الوراثة السوفييت (ب . ل . أستاوروف وآخرون) من التحكم بعمليات التكون الجنسي عند بعض الأنواع البيولوجية . ولكن كُلّما كان مستوى النوع أعلى في سلم التطور الحيواني كانت حتمية انتمائه الجنسي أعقد وكانت ارتباطاته مع جوانب التطور الأخرى متنوعة أكثر . ويُفضي تعقد تطور الكائن الإنساني ، وتنوعُ أشكال النشاط الفردي إلى ازدياد عدد التباينات الفردية في النفسية والسلوك ، والتي لا يمكن حصرها ضمن إطار التقسيم الثنائي البسيط إلى مذكر أو مؤنث . أخيراً ، ومن خلال دراسة التمايز الجنسي عند الإنسان يجب أخذ العوامل الإجتماعية ـ التاريخية دائماً بعين الإعتبار . يبدو أنه من المغري اعتبار كل الفروق الفيزيزلوجية النفسية بين النساء والرجال وكذلك الأشكال الموجودة لتقسيم العمل الاجتماعي بين الجنسين ـ من النظرية العامة لثنائية الشكل الجنسية نفسها . ولكن من المعروف من خلال نظريات علم الاجتماع والإتنوغرافيا بأنَّ الأدوار الجنسية (تقسيم العمل الجنسي) في مجتمعات مختلفة لا تتوزع بشكل متساو ، بل تتبع النظام الاجتماعي ، وقبل كل شيء ـ أسلوب الإنتاج . ويبينُ علم النفس على أن الصفات الفردية للرجال والنساء لا تتوقف كلها على الانتماء الجنسي وحتى هناك ، حيث توجد مثل هذه الحتمية ، فإنها غالباً ما تبدل من طبيعتها وتتعدَّل حسب الظروف البيئية والتربية ونوع النشاط . . . الخ . وينطبق هذا تماماً على السلوك الجنسي .

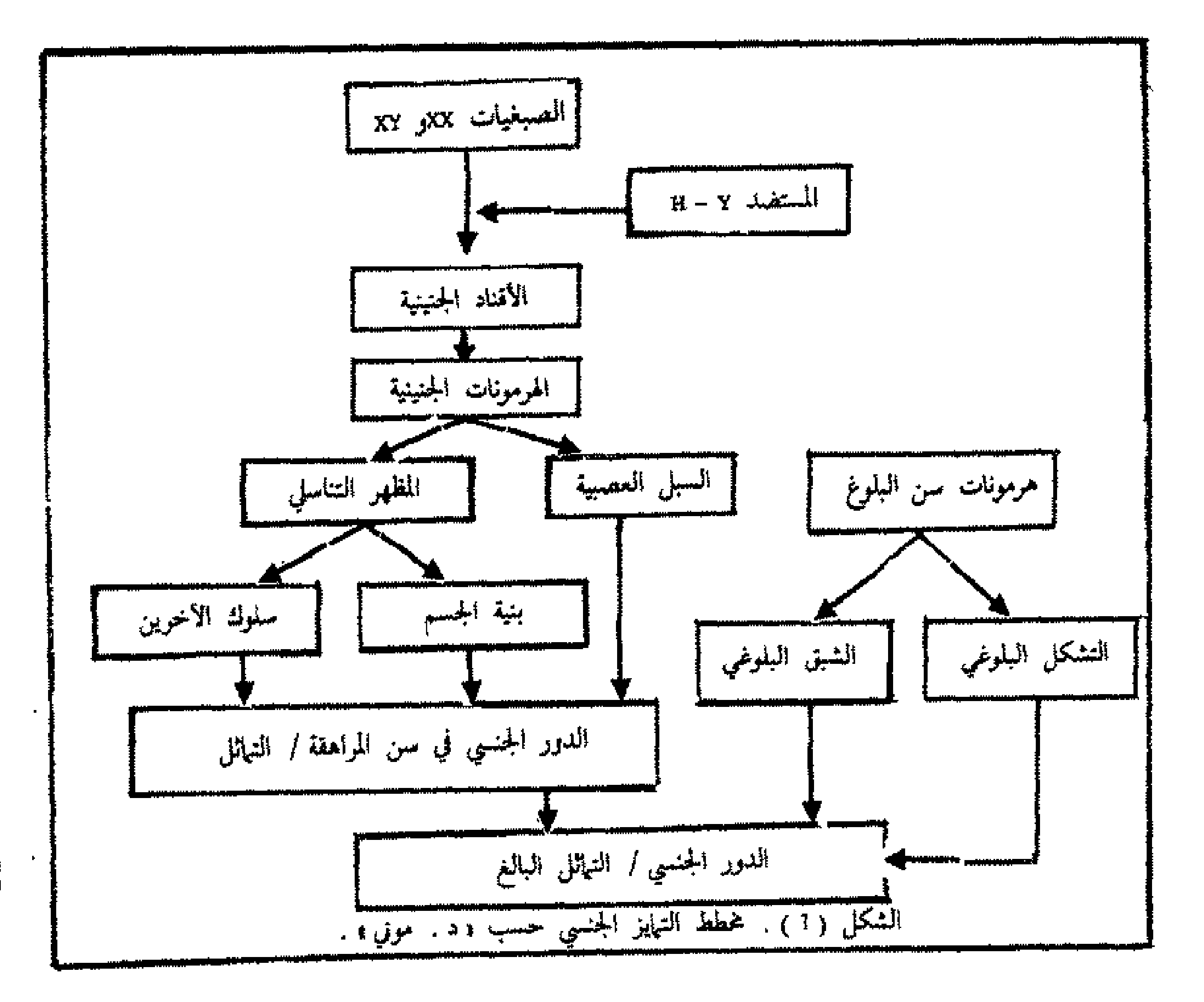
أخرى ـ نمط محدد من الميل الجنسي والرغبة الشبقية نحو الجنس المقابل والمماثل (خنوثة كاذبة) .

إنّ نتيجة عملية التمايز الجنسي المعقدة خلال مسيرة تكوُّن الفرد هي التماثل الجنسي . وقد صوّر « د . موني » مراحل هذا التمايز الأساسية ومكوناته بالمخطط التالي (الشكل ـ آ ـ) . إنّ الحلقة البدئية لهذا الخط التطوري المديد هي الجنس الصبغي أو الوراثي . (أنثى ـ XX وذكر ـ XY) الذي يتشكل منذ الإلقاح ، ويعيّن البرنامج الوراثي اللاحق للعضوية ، وخاصةً تمايز الغدد التناسلية (الجنس المنسلي ـ القندي) فالأقناد المضغيّة الأولية غير متمايزة حسب الجنس . ثم يأتي دور المستضد ـ H Y(المكتشف في عام 1976) الذي يميز الخلايا المذكرة فقط ويجعلها غير متوافقة نسيجياً مع الجهاز المناعي للعضوية المؤنثة ، فيبرمج تحوُّل الأقناد الإنتاشية للجنين المذكر إلى الخصى (تتحول الأقناد الإنتاشية للجنين المؤنث إلى المبايض) . ينتهي هذا التمايز بملامحه العامة في الأسبوع السابع ، وبعدئذٍ تبدأ الخلايا الخاصة للأقناد المذكرة (خلايا ليدغ) بإنتاج الهرمونات الجنسية المذكرة (الأندروجينات) ، ويستمر نشاط هذه الخلايا حتى الأسبوع الثاني والثلاثين ، ثم تعاني بعد ذلك من تراجع في تطورها وتبقى موجودة بحالة ضامرة حتى بداية البلوغ الجنسي .

إن أهمية هذه الأندروجينات الجنينية (أو الجنس الهرموني للجنين) عظيمة جداً .

1 ـ يتوقف عليها تكون الأعضاء التناسلية الباطنه عند الجنين سواء المذكرة منها أو المؤنثة (الجنس التشكلي الباطن) والأعضاء التناسلية الظاهرة (الجنس التشكلي الظاهر أو المظهر الخارجي حسب « د . موني ») .

2 ـ يتوقف على هذه الأندروجينات أيضاً تمايز السبل العصبية لأقسام محددة من الدماغ ، والتي تنظِّم الفروق السلوكية الجنسية (تدعى أحياناً « المراكز الجنسية ») وتكتمل العوامل البيولوجية للتمايز الجنسي بعوامل اجتماعية وذلك في مرحلة تكون الف بعد الولادة . فعلى أساس المظهر التناسلي للوليد يتحدد جنسه المدني (ويدعى جنس الهوية أو الجنس الولادي) ، ثمّ تلعب التربية دوراً في ذلك (جنس التربية) وهنا يكون لبنية جسم الطفل ومظهره دوراً هاماً في وعيه الذاتي وفي علاقته مع الناس المحيطين به



الشكل (1) . مخطط التمايز الجنسي حسب « د . موني » .

وذلك تبعاً لدرجة تطابق هذا المظهر مع الجنس المدني (جنس الهوية) . وفي سن البلوغ ونتيجة للإشارة الآتية من منطقة ما تحت المهاد (الوطاء hypothalamus) والغدة النخامية hypophysis تبدأ الأقناد بالتوليد النشيط للهرمونات الموافقة المذكرة أو المؤنثة (الجنس البلوغي الهرموني) ، وبتأثير هذه الهرمونات تظهر على المراهق أو المراهقة العلامات الجنسية الثانوية (التشكل البلوغي) والأحاسيس الشبقية (الشبق البلوغي) . وتضاف هذه الظروف الجديدة إلى التجربة الحياتية السابقة للطفل ووعيه الجنسي الذاتي ، وبالنتيجة يتكون التمايز الجنسي النوعي النهائي للإنسان البالغ .

وهكذا ، نجد أنفسنا أمام تحول متعدد المراحل والدرجات ، وإنّ الخلل في أي مرحلة منها يؤدي إلى عواقب كبيرة الأهمية غالباً ما تكون غير قابلة للعكس . وبالضبط ، من خلال دراسة الإضطرابات المتعددة الأشكال الوراثية والهرمونية والفيزيولوجية العصبية والإضطرابات الأخرى يقترب العلم تدريجياً من إدراك قوانين التطور الطبيعي .

يمثل الثالوث المؤثر (هرمونات ـ دماغ ـ سلوك) أهمية كبيرة من أجل نظرية التمايز الجنسي . وقد توضّح هذا الثالوث للعلماء ،نسبياً ،في السنوات الأخيرة . وحتّى في سنوات الخمسينيات والستينيات غالباً ما جرى الحديث عن صيغة « الهرمونات والسلوك » ، وقد أُسند الدور الأنشط في تأثيراتها المتبادلة إلى الهرمونات . ولكن تبينّ أن مثل هذا التحول « الداخلي » المعمق كالبلوغ الجنسي يتوقف على عدد كبير من العوامل « الخارجية » البيئية . وإنّ استئصال العينين أو تخريب الدماغ الشّمي يؤدي إلى بطء شديد في عملية البلوغ الجنسي عند الفئران والجرذان ، فوجود فأر بالغ يسرِّع عملية البلوغ الجنسي عند الفأرة الأنثى ويكبح بلوغ الفأر الذكر . . . الخ . يعني هذا ، أن الهرمونات لا تنظم عمليات النمو وحسب ، بل تتوقف هي نفسها عن الوسط الخارجي والمعلومات عنه الواصلة إلى الدماغ . وليست أقلّ تعقيداً تلك العلاقة المعكوسة الموجودة بين الهرمونات الجنسية والدماغ . ومثلما بينت البحوث التجريبية فإنّ الإختلال بالتوازن الهرموني في مرحلة التطور داخل الرحم عند الجرذان (نقص

الأندروجينات عند الذكور أو زيادة الأندروجينات والأستروجينات عند الإناث) يؤدي إلى سلوك مستقر عند الجرذ البالغ لا يتماثل مع جنسه الوراثي ، أي مؤنث عند الذكور ومذكّر عند الإناث . ويكمن وراء هذا خلل في التمايز الجنسي لبعض أجزاء الدماغ وخصوصاً منطقة ما تحت المهاد (الوطاء) . وتحصل عملية التمايز الجنسي هذه ، برأي « ديورنر » ، عند الجنين الإنساني بين الشهرين الرابع والسابع من الحياة داخل الرحم .

إن لاكتشاف التمايز الجنسي في الدماغ أهمية فائقة . . ولكن تفسير هذه الوقائع متعدد المعاني . قبل كل شيء ، لا تتمايز منطقة ما تحت المهاد (الوطاء) بتأثير الأندروجينات فحسب ، بل تؤثر هي نفسها مباشرة على جهاز الغدد الصم وعلى التمايز الجنسي للسلوك على حد سواء . بالإضافة لذلك ، يجب النظر إلى عملية التمايز الجنسي في الدماغ تبعاً لمستوى الهرمونات الجنسية وطبيعة الشروط الإجتماعية النفسية ، مثل التعرض للشدة أثناء الحمل ، لا كنتائج نافية بل مكملة لبعضها البعض ، ذلك لأنها تتحقق بواسطة الأجهزة العصبية نفسها . وبكلام آخر ، فإنّ التمايز الجنسي للدماغ لا يرتبط على الأرجح بالتحولات الهرمونية فقط ، بل وبالمعلوماتية التي تربط العضوية مع الوسط الخارجي ومع عمليات الاستقلاب داخل العضوية كذلك . ومن البديهي أن العلاقة بين الهرمونات والدماغ عند « الرئيسات » أعقد بكثير منها عند القوارض التي أجري عليها القسم الأكبر من التجارب ، مما يتطلب الحذر عند استخلاص النتائج .
بيد أن الشيء الأهم هو أنّ التمايز الجنسي للدماغ لا ينفي إمكانية التمايز في الإتجاهين المذكر والمؤنث . . وقد بدا لهم وكأنه قد تكوّن إلى هذه الدرجة أو تلك مركز جنسي موافق مذكر أو مؤنث في الدماغ ، وأنّ السلوك الجنسي ثنائي الشكل للفرد غير قابل للعكس ، ولكن بمساعدة التأثيرات الهرمونية أو التداخلات الجراحية على مناطق المخ الموافقة يمكن أن تثير ردود فعل مذكرة عند الإناث ومؤنثه عند الذكور . ويسبّب مفهوم « المراكز الجنسية » نفسه ، النزاعات : أولاً ، لا يحدد العلماء الذين يستخدمون هذا المفهوم بدقة ، هل يقصدون بـ « السلوك الجنسي » فقط السلوك التوالدي والسّفادي أو

كل سمة السلوك الجنسي ثنائي الشكل الذي يميز الذكر أو الأنثى . وهذا الفرق يعتبر أساسياً كما سنرى فيما بعد . ثانيا ، يجب أن نفهم بوضوح بأنّ الحديث لا يدور حول « نقاط » تشريحية محددة في الدماغ بل عن التأثيرات المتبادلة للمراكز العصبية والتي تقوم بوظائفها في حدود الجملة العصبية بكاملها . ولأجل التخلّص من « الميكانيكية » ، يمتنع أغلب العلماء عن استعمال تعبير «المراكز الجنسية » ويتنازعون حول شرعيته .

ويعكس أعضاء التوالد التي يكون تمايزها متعارضاً ، ينطوي الدماغ على إمكانيات كافية لبرمجة السلوك حسب النمط المذكر والمؤنث على حد سواء ، ويتوقف تحقق هذه الإمكانات على شروط التطور الفردية .

وإنّ فهم تعدد مستويات التطور الجنسي يعقد بشكل واضح مسألة التمايز الجنسي . وإنّ مفهوم ثنائية الشكل الجنسية لم يفرّق في البداية بين التمايز الوراثي والهرموني والتشكّلي والسلوكي والنفسي للأفراد ؛ وافترض على أن كل هذه المقاييس متطابقة وتحتّمها نفس الأسباب . ويميل الوعي الساذج حتى في يومنا الحاضر إلى الاعتقاد بأنه من الممكن الحكم على بنية الشخص الهرمونية وميوله الجنسية من خلال بنيته الجسدية . وفي الواقع ، ليس من الضروري أن تتطابق الفروق الجنسية في النفسية مع الصفات الشكليّة والجسمية ، وهذه الظاهرة في غاية التعقيد بحد ذاتها . ويميّز « أ . أرهارد » و « خ . ف . ل ماير ـ بالبورغ » في هذه الظاهرة بين 4 مقاييس مستقلة :

ـ أولاً ، التماثل الجنسي ، أي التشابه الأولي للفرد مع هذا الجنس أو ذاك . وبما أنّ هذه العملية تتطلّب وعياً ذاتياً وقدرة على التصنيف الذاتي فإنّ التماثل الجنسي عند البشر ليس له نظير في عالم الحيوانات ؛

ـ ثانياً ، السلوك الجنسي ثنائي الشكل الذي يمكن أن يكون متشابهاً لهذه الدرجة أو تلك عند الإنسان والحيوانات العليا . يتركز هذا السلوك في عدة « بؤر » . قبل كل شيء يفترق الذكور عن الإناث بالتوازن الطاقي وبطرائق تصريف هذه الطاقة . ويبدي الصبيان نشاطاً أكثر ، ويشتركون غالباً في ألعاب القوى . . . . الخ . وتلاحظ هذه الخاصّة عند القرود الشبيهة بالإنسان وترتبط بفروق هرمونية ولادية . ويتعلق الصنف

الثاني من السلوك بالعدوانية الإجتماعية المتجلية بالتهديد والعراك والمنافسة . . وغيرها ، والتي تميّز الذكور في أغلب الحالات ، ومع هذا فإن المقارنة المباشرة لسلوك الأطفال وسلوك الحيوانات غير ممكنة دائماً . تصادف الألعاب المتعلقة بالوظائف الوالدية المستقبلية عند البنات بشكل خاص ، ففي جميع المدنيّات (الثقافات) تلعب البنات أكثر في « اللُّعب » و « البيت » ويقلّدن العلاقات الأسروية ويعتنين بالأطفال الصغار بكل سرور . . . الخ . إنّ مثل هذا السلوك ، بدون شك ، هو نتيجة للتربية المميزة والتلقين عند الإنسان ، أمّا عند الثدييات الدنيا فإن شدة السلوك « الوالدي » ترتبط كذلك بتأثير الهرمونات الجنسية في مرحلة ما قبل الولادة . واضح كذلك بأن الإختلاط بالأقران هو سلوك جنسي ثنائي الشكل : اختيار الشركاء من نفس الجنس أو من الجنس الآخر ونمط العلاقات المتبادلة في المجموعة وغير ذلك . ويكتمل هذا عند الأطفال بـ « بطاقات » الدور الجنسي : فالأطفال الذين لا تتوافق تصرفاتهم وألعابهم مع المقاييس الدارجة ، يلقّبون بألقاب مهينة ؛ ويسمي الأقران الصبي الأنثوي من الناحية السلوكية أو الجسدية « بنية » أو « نعومة » ، أما البنت الذكورية فينعتونها بـ « الرجال ـ الزلمة » . ويلاحظ حضور الفروق الجنسية كذلك في طرائق العناية بالمظهر الخارجي واستخدام أدوات الزينة وغيرها ؛

ـ ثالثاً ، توجد فروق جنسية معينة ، ولكنها غير مثبتة قطعيّ ودائماً ، في العمليات المعرفية وسرعة ردود الفعل النفسية والتعلّم والقدرات العقلية النوعية وغيرها ؛

ـ رابعاً ، الميول الجنسية ـ الرغبة الشبقية نحو ممثلي هذا الجنس أو ذاك .

وقد أجمل « د . موني » بطريقة ناجحة بعض قوانين التمايز الجنسي في تطور الفرد على شكل مجموعة من المبادىء .

مبدأ التمايز والتطور ، ويعني أنّ نمو العضوية هو عبارة عن عملية متزامنة مع تمايزها ، والتي من خلالها تتحول الإمكانية الثنائية الأولية عند المضغة إلى ذكر أو أنثى . يوجّه هذا المبدأ ، من جهة ، ضد فكرة التلقائية والتطور الخطي التي تعتبر التطور هو فقط إظهاراً لمجموعة (طقم) وحيدة من الإمكانيات الكامنة في المضغة ، ومن جهة

أخرى ـ ضد النظريات القائلة بأنّ التمايز الجنسي النوعي للفرد يتعين بصورة رئيسية (وقل حصراً) بالشروط البيئية والتربية .

مبدأ التمايز على مراحل ، أي أنّ لعميلة التمايز قوانينها المرحلية ، حيث تعتمد كل مرحلة تمايز لاحقة على سابقتها ؛ فتستبق ثنائية الشكل الوراثية للصبغيات الجنسية تمايز الأقناد ، وهذه بدورها تحدّد الجنس الهرموني للمضغة . . . الخ .

مبدأ الفترات الحرجة ، ويقصد بها أن كل مرحلة من التمايز الجنسي يطابقها فترة معينة من التطور ، حيث تكون العضوية أكثر حساسية لتأثيرات محددة . فإذا « نفذت ـ اختفت » الفترة الحرجة لسبب ما تكون العواقب غير معكوسة . وهكذا فإنّ تمايز الأقناد المضغية ينظّم بشكل طبيعي من قبل الصبغيات الجنسية ، ويحدث هذا فقط عندما يستطيع الراموز code الوراثي المسجّل في الصبغيات والمحمول (المخصص) لهذه الفترة الحرجة بالذات أن يظهر بشكل طبيعي دون انقطاع أو تدخل من الخارج . وإنّ الخلل في الراموز الوراثي يمكنه أن يبدّل كل عملية التمايز الجنسي . فمثلاً ، وبفضل تأثير الأستروجين على يرقة السمكة اليابانية « ميداكا » فإنّ الصغار الذين صيغتهم الصبغية XY ومن المفترض أن يتطوّروا كذكور ، قد تمايزوا تحت هذا التأثير إلى إناث دون أي تبديل في جنسهم الوراثي . وتجري تجارب من هذا النوع كذلك على الثدييات . ومع أن أحداً لم ينجح بتحقيق استحالة (تحول) في الجنس الوراثي الكامل للبيضة الملقحة عند الثدييات ، فلا يشك علماء الوراثة بالإمكانية المبدئية لتغيير الصفات الجنسية (التشكلية والسلوك والقدرة على التكاثر) في المراحل الحرجة من التطور . وبما أنه لا توجد فروق منظورة بين الجنسين في المرحلة البدئية من تطور العضوية (عند الإنسان هي الأسابيع السبعة الأولى من الحمل) ، فإنها تسمّى « محايدة » أو « ثنائية الجنس » . ولكن المشرح الأمريكي « ميلتون دايموند » يشير إلى أنّ هذه الصفة تتعلق بالنموذج الأنثوي فقط . ولا تنفي الإمكانية الثنائية عند المضغة في « مرحلة ما قبل التمايز » أن تكتسب الأنسجة الوراثية للذكور والإناث حساسية ممكنة نحو محفّزات معينة ، وأن تكون هناك أنسجة وأقسام جهازية للعضوية لها فترات حرجة خاصة بها ،

ولا تتوافق مع بعضها البعض . وهكذا ، يحدث تمايز الأقناد عند المضغة البشرية في الأسبوع السادس من التطور تقريباً ، حيث تتشكل عند المضغة XYالخصى وعند المضغة XXالمبايض . أمّا التمايز الجنسي للنسج العصبية فيحصل في الفترة بين الشهرين الرابع والسادس ولكن نتائج هذا التمايز تلاحظ فقط بعد الولادة ويظهر بعضها (مثل اختيار موضوع الجنس) في سن البلوغ فقط .

ولأجل فهم خصائص التطور حسب النمط الذكري يعتبر « مبدأ آدم » أو متمّمات التمايز الذكري في غاية الأهمية . برأي « موني » ، تعتني الطبيعة بشكل خاص بتكوين الأنثى . ففي مراحل التطور الحرجة وإذا لم تتلق العضوية أية اشارات أو أوامر مكمّلة ،، يسير التمايز الجنسي آلياً نحو النمط الأنثوي . وللحصول على ذكر يجب بالتأكيد « إضافة » شيء ما له القدرة على لجم البداية الأنثوية الأساسية هذا الشيء في البداية هو المستضد Y – Hثم الأندروجين الجنيني . وعند غياب الأندروجينات في المرحلة الموافقة للحياة داخل الرحم تتكون عند الجنين أعضاء تناسلية مؤنثة بغض النظر عن جنسه الوراثي ، وفي حالة عدم كفاية الأندروجينات الجزئية لا تبدو الأعضاء التناسلية الظاهرة المذكرة مكتملة (صغر القضيب أو الخصية الماجرة ـ عدم هبوط الخصية) . وبالعكس ، يلاحظ عند زيادة الأندروجينات تذكير الجنين المؤنث ؛ وقد برهن على هذا تجريبياً عند الفئران والأرانب والأبقار والقردة . وتبدي الأندروجينات الجنينية تأثيراً قوياً أيضاً على التمايز الجنسي للجملة العصبية المركزية . وقد نجح العلماء عن طريق حقن الأندروجينات في رحم أنثى قرد النسناس (ريزوس) في الحصول على إناث من الناحية الوراثية ولكن مولودات بقضيب عادي وصفن فارغ عوضاً عن البظر والفوهة المهبلية ؛ وسلكت هذه الإناث المذكرة فنياً في الطفولة وسن المراهقة سلوكاً شبيهاً بسلوك الذكور من نوعها ـ فباشرت بالمهارشة وشاركت بالألعاب العنيفة وقامت بحركات تهديدية واتخذت وضعية مذكّرة في الألعاب الجنسية . ولوحظت أشياء مشابهة عند البنات المصابات بالمتلازمة الأندروجينية الناتجة عن زيادة محتوى الأندروجينات في مرحلة النمو داخل الرحم . مثل هؤلاء البنات سلكن في الغالب سلوكاً مذكراً ، مع أن

التذكير الجسدي والسلوكي لم يتطابقا دائماً عندهنّ ، وكان ظهور التذكير السلوكي أقل حدة .

وهكذا عندما تتصادم البدايتان المذكرة والمؤنثة خلال عملية التمايز الجنسي تنتصر الأولى عادة . وبما أن تكوين الذكر يحمّل الطبيعة جهوداً إضافية فإنها ، حسب تعبير « موني » ، غالباً ما ترتكب أخطاءاً يكون من نتائجها ازدياد نسبة الموت عند الرجال واستعدادهم للإصابة بمجموعة من الأمراض . لن نتبع « موني » أبعد من ذلك ، فيما يتعلق بطبيعة السلوك الجنسي بشكل خاص والعوامل الإجتماعية للتمايز الجنسي التي سيدور عنها الحديث فيما بعد . وسنضع بدلاً منها سؤالاً آخر : إذا كانت المحتمات الوراثية والهرمونية للتمايز الجنسي عظيمة الأثر لهذا الحد فلا حاجة للبحث عن أسباب اخرى لتفسير الفروق السلوكية بين الرجال والنساء ؟ وهل من الممكن أن تكون العوامل الإجتماعية والوعي الذاتي عبارة عن بناء فوقي فقط كإضافة لما تمنحه الطبيعة لكل فرد ؟ وهذا السؤال ليس مجرد لغو . فعندما كانت البيولوجيا الجنسية ضعيفة التطور ، اتبع غالباً مثل هذا المنطق الإختزالي مستنجدة تارة بالصبغيات وتارة بالهرمونات وتارة ثالثة بتمايز الدماغ .

وفي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، وبعد أن تبينّ الإنتشار الواسع لمجموعة من التشوهات الناجمة عن الجمع غير الصحيح للصبغيات الجنسية (متلازمة تورنر ، متلازمة كلاينفلر ، متلازمة YY) واقتران هذه التشوهات ليس فقط ببعض العلامات الجسدية لحامليها وإنما مع نمط محدد من السلوك الإجتماعي أيضاً(مثل ازدياد العدوانية والإجرام عندما تكون الصيغة الصبغية 47 / XYY) و وقد تراءى لبعض العلماء وكأنهم عثروا على مفتاح كل الاختلافات في السلوك بين الرّجال والنساء . ولكن سرعان ما تبينّ بأنه ومهما كان تأثير علم الأمراض الصبغية فإن الجنس الوراثي يؤثر على السلوك في عملية التمايز الجنسي الطبيعية فقط عبر متوسطات عديدة لا يمكن أن ينظر إليه كشيء ما كلي وشامل .

وكان هناك الكثير من الأوهام في أعوام الخمسينيات والستينيات مرتبطة بإنجازات

علم الغدد الصُّم . ففي ضوء التجارب الأولى الناجحة على الحيوانات بدا كما لو أن كل الفروق الجنسية تقريباً (عن ردود الفعل الجنسية لم يذكر أي شيء) محتومة هرمونياً ومن السهل تحويرها (تعديلها) نسبياً تحت تأثير المحضرات الهرمونية . لكن وبسرعة تعقدت اللّوحة . عند تعميمه للتصورات المعاصرة بهذا الصدد ، أشار عالم النفس الأمريكي الشهير « فرنيك بيتش » إلى ضرورة التفريق بشكل صارم بين تأثير الهرمونات في عملية تطور العضوية (التأثير الوراثي) وبين تأثيرها المؤقت والمرحلي (التأثير المرافق) . وإنَّ التأثير الوراثي ممكن فقط خلال فترة معينة من التطور ، ولا يكون للهرمونات مثل هذا التأثير قبل هذه الفترة أو بعدها . أمّا عواقب هذا التأثير فهي دائمة وغير معكوسة ، ولو أن بعض هذه العواقب يمكن أن « تتعزّز » فيما بعد بمؤثرات غير هرمونية . ويلاحظ جزء من هذه العواقب فقط في المراحل المتأخرة من حياة الفرد ، ومع ذلك فإنَّ هذا التأثير المؤجّل يتوقف أحياناً على تحريض إضافي للعضوية بواسطة الهرمونات الجنسية التي تظهر في مراحل التطور الموافقة ،مثال على ذلك هو تنشيط هرمونات سن البلوغ وتفعيلها للآليات المبرمجة هرمونياً عصبياً منذ مرحلة التطور داخل الرحم . ولا ينحصر تأثير الهرمونات الجنسية المرافق بفترة حرجة معينة ، ولكنه مبدئياً قابل للعكس . إنَّ المبالغة والتبسيط بنفس الوقت فيما يتعلق بالوظيفة المنظِّمة للهرمونات الجنسية يفسَّر غالباً بالتصور غير الصحيح حول خصوصيتها . في الواقع ، توجد هرمونات المجموعات الثلاثة هذه ـ الأندروجينات والأستروجينات والبرجسترونات ـ عند كلا الجنسين ، وتختلف فقط من حيث نسبتها وتأثيراتها البيولوجية على العضوية . فيبلغ مستوى الأستروجينات عند الرجال 2 ـ 30٪ ، والبروجسترونات ـ 6 ـ 100٪ من مستواها عند النساء (وذلك تبعاً لتطور الدورة الحيضية ـ الطمثية) . ويبلغ المستوى الوسطي للأندروجينات عند النساء 6٪ من مستواها عند الرجال . واكتشفت في السنوات الأخيرة هرمونات جديدة ومحضرات هرمونية صنعيّة تختلف بفعاليتها الفيزيولوجية وتؤثر بشكل مختلف على العضويتين المذكرة والمؤنثة ، وفي بعض الشروط تتحول من إحداها إلى الأخرى .

من أجل تقييم تأثير الهرمونات على التطور الجنسي النفسي للعضوية بصورة ملموسة ، لا بد من أخذ عدة عوامل بعين الإعتبار : 1) مرحلة الدورة الحياتية للعضوية ؛ 2) طبيعة الهرمونات التي يتم إدخالها مع بعضها البعض ، إذ يمكن لهرمونات مختلفة أن تؤثر بشكل مستقل عن بعضها البعض ، بصورة متعاكسة أو متآزرة ؛ 3)كمية الهرمونـات وتبدلاتها اليومية . . وغيرها ؛ 4) الفعالية البيولوجية للهرمون ، أي كيف وعلى أية أنسجة وأعضاء هدفية يؤثر ؛ 5) وقت ومدة استمرار التأثير الهرموني ؛ 6) سبل العبور الهرمونية ؛ فمثلاً تستخدم الأندروجينات بصورة رئيسية سبيل التستسترون أو (و) الذي هيدروتستسترون ، أمّا الأستروجينات فتستخدم سبيل الأستراديول ؛ 7) خصائص الطرائق التي تعاير بواسطتها مستويات الهرمونات والوسائل التي تقيّم بواسطتها « المتلازمات » السلوكية المفترض أن تؤثر عليها هذه الهرمونات .

إنّ خطر التعميمات الواسعة والمستعجلة لتأثير الهرمونات النسبي على السلوك يتضح جيداً من خلال مثال دراسة الروابط المتبادلة بين الأندروجينات والسلوك العدواني الذي يعتبر أحد العلامات المميزة للذكورة وكما ذُكر من قبل ، يعطي تذكير الجنين المؤنث في المرحلة الحرجة من التطور تأثيراً تذكيرياً ثابتاً ، ومن ضمنه السلوك العدواني . وتزيد الأندروجينات من شدة السلوك العدواني عند قرد النسناس (ريزوس) حتى عند إدخالها في مرحلة ما بعد الولادة . ولوحظ في عدة بحوث عند أكثر الذكور عدوانية أعلى مستوى من الأندروجينات . ولكن مستوى التستسترون في البلازما لم يكن عاملاً دائماً . وبيّنت المعايرات اليومية للتستسترون عند 20 من الرجال الشباب خلال شهرين أن مستواه يتراوح من يوم لآخر ما بين 14 و 42٪ . ويتوقف الكثير هنا على الظروف المحيطة وتبدلاتها . وقد لوحظ أن كمية التستسترون في دم ذكور قرد النسناس ، الموجودين في قفص مع الإناث حيث يأمّرون عليها ويجامعونها ، مستقرة وثابتة . ولكن وبعد هزيمة الحيوان في المهارشة ينخفض مستوى التستسترون كثيراً ويبقى على هذا الحال منخفضاً . ولا توجد علاقة سببية للتلازم بين مستوى الأندروجينات من

جهة والسيطرة والعدوانية من جهة أخرى ، بل أن هناك تبعية متبادلة فقط ، زد على أن التنظيم الهرموني للسلوك يتعلق بعوامل غير هرمونية متعددة .

إنّ تبعية السلوك البشري للهرمونات أكثر تعقيداً أيضاً : فكما ذكر « بيتش » لا يعود الفرق الهام بين تأثير الهرمونات على السلوك عند الحيوانات وعند الإنسان على كون الأخير أقل حساسية لتأثير الهرمونات ، بل لأنّ العوامل غير الهرمونية تلعب دوراً هاماً للغاية في تكوين جميع نواحي السلوك الإنساني ويشمل هذا النواحي التي يتم تنظيمها هرمونياً بشكل مباشر عند أكثر الحيوانات . بالإضافة لذلك ، عند الحديث عن ردود الفعل الحيوانية الجنسية ثنائية الشكل المنظّمة هرمونياً والتي تختلف عند الذكور منها عند الإناث ، فإنهم يقصدون غالباً السلوك الأساسي لأجل استمرار النوع (السلوك التوالدي) . أمّا عند البشر فيتوزع التمايز الجنسي على دائرة واسعة من العلاقات التي تدخل ضمنها تلك التي ليس لها أهمية توالدية (متعلقة بالإنجاب) مباشرة ، مثل الأشغال المهنية أو ترابط الإهتمامات العلمية والفنية . وإنّ أي سلوك بشري ، وحتى التوالدي ، يتطور تحت تأثير ومراقبة الخبرة الشخصية والتعلم الإجتماعي .

يهتم علم الإجتماع وعلم النفس بهذه القضايا خاصةً . ولكن الطب السريري اصطدم بها كذلك عند دراسة ما يسمّى بحالات الخنوثة . ومع أن مشكلة الحالات « البينية » ، أي « النوع المتوسط » من الناس الذين يجمعون ما بين الصفات المذكّرة والمؤنثة ، هي مشكلة قديمة قدم العالم نفسه ، فقد أصبح من الممكن بحثها الجدي فقط بعد أن « تعلّم » العلم التفريق بين المكونات الذاتية المستقلة ومستوى الجنس البيولوجي (الجنس الصبغي ، القندي ، الهرموني ، التشكلي) من جهة ، وبين طبيعة الوعي الجنسي الذاتي من جهة أخرى . وعندما يتطابق الجنس البيولوجي مع تعريفه الإجتماعي (الجنس المدني ، العلاقة مع الناس المحيطين . . . الخ) لا تنشأ على الأرجح مصاعب متعلقة بالتمايز الجنسي . ولكن الأمر يختلف إذا افترق هذان التعريفان لسبب ما ، أو كان الجنس البيولوجي نفسه غير واضح . والمثال الأوضح من هذا النوع هو الخنوثة الولادية ، أي الحالة غير المحددة وازدواج أجهزة التوالد في العضوية ، والأعضاء

التناسلية الظاهرة خاصة ، حيث من الصعب تعيين الجنس كمذكر أو مؤنث . وعندما كان الإنتماء الجنسي يتحدد فقط من خلال الأعضاء التناسلية الظاهرة بدا أنّ هذا المصطلح واضحاً ولو على المستوى الوصفي . ولكن ما أن تبينّ وجود مكوّنات عميقة للجنس حتى تعقد الوضع . وطرح السؤال التالي : ما هو الجنس « الحقيقي » لمثل هؤلاء الأفراد وبأية صفات يعيّنونه هم أنفسهم ،هل على أساس أعضائهم التناسلية الظاهرة أم وفقاً لجنس التربية أم بصفات عضوية أخرى ما زالت غامضة حتى الآن ؟

أثرت بحوث أعوام الخمسينيات وأوئل الستينيات المحتّمات النفسية والاجتماعية للجنس . فمن بين 110 حالات خنثوية مترافقة بتشوهات صبغية وقندية هرمونية وتشكُّلية (مورفولوجية) تمت دراستها من قبل « موني » و « جون هيمبسون » حدّد أكثر من مائة من هؤلاء انتماءهم الجنسي على أساس التربية التي تلقوها ، مما دعا للتفكير بأنّ التماثل الجنسي هو نتيجة التعلم بصورة أساسية وبسرعة ظهرت معطيات على النقيض من ذلك : بعض الأطفال الذين سمّيوا وربّيوا طبقاً لجنس أعضائهم التناسلية الظاهرة وتبين أنهم طبيعيون تماماً ، سلكوا سلوكاً على نمط الجنس المقابل ، وفي سن البلوغ ظهرت عندهم العلامات الثانوية لهذا الجنس المقابل والتي « برّرت » سلوكهم السابق غير النموذجي . أي أن البيولوجيا « تغلّبت » على التربية . ومع اكتمال طرائق البحث والتشخيص الوراثية وفي علم الغدد الصم صارت المعطيات التجريبية أكثر تناقضاً . فقد وصف « موني » و « داليري » مثلاً (7) أفراد صبغياتهم أنثوية وأجناسهم قندية ولكنه وبنتيجة تعرُّض هؤلاء لحقن كثيرة من الأندروجينات في المرحلة الجنينية ، ظهروا إلى الوجود بعضو تناسلي مذكر (قضيب) . وتمّت تربية (4) أفراد منهم كبنات حيث تكوّن عندهن تماثل جنسي أنثوي ولكن مع بعض مزايا السلوك الذكوري . وربي الثلاثة الآخرون كصبيان واكتسبوا تماثلاً جنسياً مذكراً وقاموا بوظائفهم الجنسية كرجال . ويبدأ كل شيء على ما يرام ، لكنّ سلوك هؤلاء الرجال بمعايير الجنس الصبغي والقندي يجب أن يكون جنوسياً . وفي حالة أخرى ، احتوت مجموع على (18) رجلا من الناحية الوراثية وعندهم مظاهر خنوثة كاذبة ثانوية بسبب نقص الـ « دي

هيدروتستسترون » في مرحلة الحياة داخل الرحم ، وكان هؤلاء قد ظهروا إلى الوجود بأعضاء تناسلية ظاهرة أكثر شبهاً بالمؤنثة ، وبهذا تمت تربيتهم كبنات . ولكن بعد البلوغ الجنسي وعي الجميع أنفسهن ، ما عدا إثنين ، كرجال وتماثلوا مع الجنس المذكر من هنا يمكن القول أن التمايز الجنسي للدماغ وللجهاز التوالدي (التناسلي) الباطن يتوقف على هرمون واحد هو « التستسترون » ، أمّا الأعضاء التناسلية الظاهرة فتتوقف على هرمون آخر هو الـ « دي هيدروتيستسترون » ، فضلاً عن أن تأثير « التستسترون » على تكوين التماثل الجنسي أقوى من تأثير التربية . وبالتالي فإن التأثيرات الهرمونية لا تتعارض مع التأثيرات الاجتماعية فقط بل يمكن أن يحدث عدم التناسق داخل كل من هذين العاملين أيضاً .

تعتبر مشكلة تحويل الجنس ـ Transsexualismوالتجربة المكدسة في هذه العملية أساساً هاماً خاصة لأجل دراسة التأثيرات المتبادلة للعوامل الوراثية والاجتماعية في تكوين التماثل الجنسي . وإنَّ مصطلح « تحويل الجنس » الذي يعني افتراقاً بين الجنسين البيولوجي والمدني(جنسية الهوية) من جهة ، وبين الوعي الذاتي الجنسي من جهة أخرى (يؤكد هؤلاء الناس الذين يريدون تحويل جنسهم على انتمائهم للجنس الآخر ويأملون بأي ثمن باكتساب الصفات الجسدية ومنها التناسلية والمظهر الخارجي والموقع الاجتماعي للجنس المقابل) ، كان قد ظهر في عام 1949 . وانفجر الدويّ حول هذه الظاهرة في عام 1962 عندما تعرّض الأمريكي « جورج يورغينسين» ذو الـ (26) عاماً لعملية جراحية في الدانمرك بهدف تحويل جنسه وتحول بشكل ناجح إلى « خريستينا يورغينسين ووصف « ملحمته » هذه في كتاب حصل على شهرة واسعة . حتّى بداية عام 1979 وبنتيجة التداخل الجراحي أو الهرموني تمّ تحويل جنس من (3 إلى 6) آلاف أمريكي ، ويبلغ عدد الراغبين في ذلك (30 ـ 60) ألفاً (لا توجد معطيات عالمية ، ولو تقريبية ، حول هذا الأمر) . وكما بيّن إستجواب / 717 / أمريكياً بالغاً ، فقد رغب أكثر من نصفهم بتجريب تبديل الجنس لبعض الوقت (5 ـ 6 أيام) [« راينيش د . » ، « روزنبلوم ل . أ . » ، 1984] . واتضح من دراسة (59) حالةً من الذين

بدلوا جنسهم بعد عشرة أعوام من العملية على أنّ التداخل الجراحي كان مفيداً في أغلب الحالات ولكن بعض الفروق الجنسية ظهرت من جديد ومع أن تحويل الجنس جراحياً يعطي نتائج إيجابية عند الرجال أكثر منه عند النساء ، فإنّ الأخيرات يتمتّعن بعلاقات جنسية أكثر استقراراً . وتقام هذه العلاقات غالباً قبل التداخل الجراحي وتستمر طوال الفترة اللازمة لتحويل الجنس . بالإضافة لذلك ، ومنذ زيارة الطبيب لأول مرة بغية تحويل الجنس تبين أنّ النساء في الغالب يعشن في ظروف اجتماعية أكثر استقراراً من الرجال . تتم دراسة هذا الموضوع في الاتحاد السوفييتي بنجاح من قبل « أ . ي . بيلكين » . هذا وقد أعطى تحويل الجنس نتيجة إيجابية ، ولكن عدم المراقبة وضعف طرائق التشخيص النفسي في بلدان الغرب أدّى إلى عدم تحسن الحالة النفسية لبعض هؤلاء وبروز مشاكل جديدة إضافية .

وتحسنت بشكل واضح في الوقت الحاضر مصطلحات وطرائق تشخيص اضطرابات التماثل الجنسي . ويعرِّف التشخيص الأساسي ـ متلازمة القلق الجنسي ـ كحالة نفسية للشخص الذي يكشف عن عدم رضاه عن انتمائه الجنسي الولادي والدور الجنسي الاجتماعي المرتبط به وبالتالي الرغبة بتحويل الجنس هرمونياً أو جراحياً . وتميِّز ضمن هذا التشخيص الأولي بين نوعين من تبديل الجنس « النووي » ـ تحويل الجنس المذكر إلى مؤنث والمؤنث إلى مذكر مع مختلف الانحرافات السريرية المتوقفة على كون هذا القلب ـ التحويل ـ يتعلق بالتماثل الجنسي فقط أم بالميل الجنسي للفرد كذلك . وتختلف جوهرياً الصفات الهرمونية والسلوكية والنفسية لهذه المجموعات من المرضى ، وتتناقض اللّوحة السريرية كثيراً . وقد دفع هذا الجمعية الدولية لدراسة القلق النفسي لـ « غاري بنجامين » (مؤلف أول كتاب عن الرغبة في تحويل الجنس) على إعداد مجموعة تعليمات للبحث المتعدد الجوانب لهؤلاء الأشخاص الراغبين بتحويل جنسهم ، حيث يشار خصوصاً إلى ضرورة استقرار الوعي الذاتي الجنسي : قبل بدء التداخل الهرموني يجب على المريض أن يبرهن على أنّ « انزعاجه » ورغبته بالتخلص من جنسه والعيش حسب مقاييس دور جنسي آخر موجودان منذ عامين على الأقل وبالطبع لا يمكن

أن يحصل تحويل الجنس ـ جنس الهوية (المدني) عند الأطفال الصغار بذريعة القلق الجنسي وذلك لعدم تكوّن الوعي الذاتي الجنسي عندهم . إلّا أن دراسة الأطفال المصابين باضطراب في سلوك الدور الجنسي و (أو) في عناصر أخرى للتماثل الجنسي تشغل حيزاً هاماً في الطب النفسي الطفولي وعلم الجنس المرضي (سنعود لهذا الموضوع في الجزء الأخير من هذه السلسلة) . حاول العلماء في البداية إيجاد سبب رئيسي واحد لرغبة تحويل الجنس .فقد فسَّر « بنجامين » هذه الرغبة بخصائص بنيوية على الأرجح ، وأشار « موني » إلى الدور الممكن للانطباع (Imprinting)، وأما« ستوللر » ففسر رغبة تحويل الجنس عند الرِّجال بمميزات التربية الأسروية ، معتقداً أن حامل منشأ المرض لا إرادياً هو أمّ المريض . ولكن التفسير الوحيد هو السبب لم يلاق نجاحاً . ويعتقد الطبيب النفسي الأمريكي « ريتشارد غرين » ، الذي أجرى بحوثاً طويلة الأمد ومستمرة على الأطفال ذوي الانحرافات في سلوك الدور الجنسي والوعي الذاتي ، بأن هذه الانحرافات هي نتيجة التأثيرات الديناميكية المتبادلة والمعقدة لسلوك الطفل المميز وسلوك أبويه ، حيث يعود جزء من هذا السلوك لطبيعةبنيوية .وعموماً ، يميل أغلب الباحثين الموضوعيين حالياً إلى الاعتقاد بأنه في حالة افتراق محتمات الجنس البيولوجية ، الهرمونية خاصةً ، والاجتماعية لا يمكن توقع النتيجة النفسية النهائية (تماثل الفرد النوعي والجنسي) انطلاقاً من مستوى المعرفة العلمية الحالية . وهكذا فالبيولوجيا تضع أساس تطور الفرد الاجتماعي النفسي ، ولكن النتيجة النهائية لا تتوقف عليها فقط .

والآن سنحصي بعض النتائج . إنَّ الانتماء الجنسي للفرد ، حتّى في الفهم البيولوجي الخالص للمصطلح ، هو نظام معقّد ومتعدد المستويات ويتكوّن من خلال عملية التطور الفردية . ولا تتباين درجة الفروق بين الجنسين من نوع حيواني وآخر فقط ، بل وفي مختلف مجالات وأنظمة النشاط الحياتي للعضوية ؛ فتشكل الأعضاء التناسلية وبنية الجسم ووظائف الجهاز العصبي المركزي والسلوك كلها مترابطة مع بعضها البعض ، ولكن أشكال وفترات ودرجات تمايزها الجنسي تختلف بشكل جوهري ، وهكذا فإنَّ نقل النتائج المستخلصة في مجال معين إلى آخر ، خاصةً عندما

يجري الحديث عن الخصائص السلوكية غير المرتبطة مباشرةً باستمرار النوع ، يعتبر مخاطرة كبيرة . من هنا تنبع ضرورة تحديد التخوم النظرية بين النواحي الاجتماعية ـ المعيارية والفردية الشخصية لسلوك الدور الجنسي .

إنَّ الدور الجنسي هو نظام من التعاليم ونموذج (موديل) سلوكي يجب على الفرد أن يتقنه ويتوافق معه كي يعتبرونه رجلاً أو إمرأة ، أمّا التماثل الجنسي فهو عبارة عن وحد السلوك والوعي الذاتي للفرد الذي يحسب نفسه منتمياً لجنس معين والتوجه لطلب الدور الجنسي الموافق . ويرتبط « الدور » و « التماثل » مع بعضهما البعض ويشترط كل منهما الآخر . وإنَّ التماثل الجنسي ، بتعبير « موني » هو الإحساس الذاتي بالدور الجنسي ، أما الدور الجنسي فهو التعبير العميق عن التماثل الجنسي وهما كذلك غير متماثلين ولدراستهما نقاط تقديرية مختلفة : ترتبط الأدوار الجنسية مع نظام التعاليم المعيارية للثقافة ، أمّا التماثل الجنسي فيرتبط مع نظام الشخصية . وإنَّ المنطق العام للروابط المتبادلة بين الدور والتماثل الجنسيين هي نفسها كما في مجالات أخرى لتنظيم السلوك الدّوري والوعي الذاتي الفردي . ولكن المسألة تتعقد أكثر في علم الجنس وذلك لعدم تطابق مفهومي الجنس كعلاقة جنسية والجنس بشكل عام كتنوع بيولوجي . فبما أنَّ الجنس والسلوك التوالدي هما التّجليان الأكثر وضوحاً وأهميةً لثنائية الشكل الجنسية ، فإنَّ علماء النفس الطبيون والسريريون يقترحون تحديداً للجنس العام باستعمال مصطلحات تشريحية وليس حسب الوضع المدني . ولكن السلوك الجنسي عند الإنسان هو حالة جزئية من السلوك الاجتماعي ، وأما الميول الجنسية النفسية للفرد فتنتج عن تماثله الجنسي ، ولهذا يسير علماء الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعيون في اتجاه معاكس ، أي من الجنس المدني إلى الجنس الخاص كعلاقة جنسية فكيف يجتمع هذان الاتجاهان في نظرية الجنس ؟ .

بيولوجية السلوك الجنسي

كان كل شيء سهلاً في النظريات الباكرة لعلم الجنس . فالهدف الطبيعي

والوحيد للحياة الجنسية ، التي زوّدتنا بها الطبيعة ، هو استمرار النوع . ولأجل ذلك يبتلي الناس وكذلك الحيوانات بالغريزة الجنسية والحاجات الجنسية . وإنّ كمية الطاقة الجنسية عند الفرد محدودة ـ حتّى أنّ العالم الألماني « و . ايفيرتس » « أحصى » في عام 1894 احتياطي كل رجل من عمليات الدفق بـ (5400) مرة ، ـ وكلّما بدأت الحياة الجنسية باكراً وكانت أكثر تواتراً كلما انتهت باكراً بالعنانة . . . . إلخ . ولكن بيّنت نظرية المنعكسات الشرطية لـ « ي . ب . بافلوف » تعقد الروابط الناشئة في الدماغ . وبعد تحليله لطبيعة الرغبة الجنسية ميّز « ف . م . بيختريف » فيها مكوّنين إثنين :

أ ـ الحاجة الداخلية غير الشرطية للعضوية في التخلّص من نواتج نشاط الغدد الجنسية المتراكمة و

2 ـ « المنعكسات المرافقة » المشروطة بالخبرة الحياتية الفردية وبالتربية ، والتي بفضلها يتم اختيار الموضوع الجنسي الأمثل ويتأمن الجماع . أمّا بالنسبة لعلم الجنس البيولوجي المعاصر فإنه يضع أسئلة أكثر ملموسية . ما هي الآليات الفيزيولوجية النفسية للتهييج الجنسي ؟ وعلى ماذا يتوقف مستوى رد الفعل الجنسي عند الذكر والأنثى ؟ ما هي طبيعة الآليات الجنسية الذاتية ، مثل نعوظ القضيب ؟ ما هي الإشارات الصوتية والكيماوية والرؤيوية (البصرية) وغيرها ، التي تثير عند الإنسان والحيوان الرغبة في شريك جنسي معين أو في نوع محدد من الشركاء ؟ كيف تتمايز مراحل الدورة الجنسية (ذروة الجماع) ؟ بماذا يفترق الإيغاف Orgasm عند النساء عنه عند الرجال ؟ على هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى مشابهة لا يمكن الإجابة نظرياً ، فهي تتطلّب بحوثاً تجريبية سريرية معقدة من قبل الفيزيولوجيين وعلماء الوراثة وعلماء الغدد الصم ، وليس من الضروري أن تنفي هذه التفسيرات بعضها البعض ، إذ أنها تعتبر ذات مستويات مختلفة .

في بحوثه المتعددة على القردة من نوع « الساميري » وعلى حيوانات أخرى ، وجد العالم الأمريكي « بول د . ماك ـ لين » ومساعدوه بأنّ تنبيه بعض أقسام الدماغ يسبب ردود أفعال جنسية مختلفة : أحياناً النعوظ وأحياناً الدفق وفي حالة ثالثة الاستمناء .

ويؤدي التنبيه الكهربائي للفص الجبهي من دماغ الإنسان إلى حدوث أحاسيس شبقية شبيهة بالإيغاف . ومن الطريف كذلك أن المراكز العصبية المنظِّمة لردود الفعل الفموية مرتبطة بشكل وثيق مع المراكز المشرفة على ردود الفعل التناسلية : إذ أن إثارة هذه المراكز بترددات منخفضة يؤدي اولاً لإفرازات لعابية وحركات مضغية ، وبعد ذلك بدقيقة تقريباً يحدث نعوظ القضيب . وليس عبثاً أنَّ نعوظ القضيب عند الحيوانات وكذلك عند الأطفال الصغار يحدث في أوقات العلف والتغذية على التوالي . ويفسِّر « ماك لين » هذه الظاهرة بأنها ناتجة عن قوانين تطور هذين الجهازين أثناء تطور السلالات : ففي القشرة الحديثة ، أي أقسام الدماغ العليا التي ظهرت بشكل متأخر خلال تطور السلالات ، يتمثَّل الرأس والزيل بنقطتين متقابلتين ولكن في الفصوص الطرفية (الحوفية) تقترب هاتان النقطتان من بعضهما البعض فيتشكل من التقائهما الفص الشمي (فالروائح تفيد من أجل التغذية والتزاوج عند الحيوانات) . وإنَّ تشمّم ولحس المنطقة التناسلية الشرجية هما جزء من طقوس التعارف والتحية عند أغلب الحيوانات . ويربط الفيزيولوجيون هذا بتأثير الفيرومونات Pheromone وهي عبارة عن مواد ذات رائحة تفرز من الأعضاء التناسلية وتثير عند أفراد الجنس المقابل تهيُّجاً جنسياً . إنَّ وجود هذه الفيرومونات عند الإنسان مازال افتراضياً . ويعتقد بعض العلماء أنه عند الإنسان ونتيجة لخصائص تشريحية (المشية المنتصبة) يصير دور المثيرات الشمية في السلوك الجنسي أقل اهمية بكثير منها عند الحيوانات ، حيث تحل محلّها الإحساسات البصرية . مع أن بعض الروائح تبدي تأثيرات شبقية واضحة ، ومن المفترض أن يساعد بعضها الآخر على تزامن بعض ردود الفعل الفيزيولوجية عند الزوجين . بالإضافة لذلك ، وحتى لو كان دور المراكز الشمية أقل أهمية في السلوك الجنسي عند الإنسان ، فيمكن أن تبقى العلاقة القديمة بين المراكز العصبية الموافقة محفوظة في الدماغ . وليس عبثاً أن يذكِّر « ماك لين » ، أنّه وعلى الرغم من كل الممنوعات الدينية والتصورات الجمالية فإن الجنس البشري يتضمَّن مختلف أشكال الإتصالات الفموية ـ التناسلية (مثل إثارة التهيج الجنسي عند الرجل عن طريق مداعبة

القضيب بالفم واللسان وإثارة الأعضاء التناسلية الأنثوية الظاهرة بالفم وغيرها) والتناسلية الشرجية التي لا يعتبرها علم الجنس المعاصر شذوذات وهذا ما يذكرنا بالنظرية الفرويدية عن الإثارة « الفموية » و « الشرجية » ؛ ومهما كان موقفنا من نظرية المراحل الفرويدية فلا أحد يشك بأن الفوهتين الفموية والشرجية مع المناطق المحيطة بهما ، وكما أشار إلى ذلك أرسطو ، تمثّلان منبعاً للإثارة . وإنّ تقلص القناة الشرجية التشنجي يعتبر تابعاً فيزيولوجياً دائماً للإيغاف ، مثله مثل تسرع النبض وزيادة إفراز العرق . وكذلك فإنّ التقلصات العضلية للقناة الشرجية التي ترافق الإيغاف عند الرجل تمتاز بنظم معين يختلف من فرد لآخر .

ولا ترتبط ردود الفعل الجنسية المنعزلة فيزيولوجياً عصبياً مع بعضها البعض فقط بل ومع ردود فعل أخرى لا جنسية عديدة . فقد حقن « آلان فيشة » دماغ الجرذ الذكر بهرمون « التستسترون » ، متوقعاً حدوث سلوك عدواني وتهيج جنسي . ولكنّ الذكر ، وبصورة غير متنظرة ، أبدى غريزة أمومية : بدل أن يمارس الجماع مع الأنثى المجلوبة إليه قام بـ « هدهدتها » . وأثار حقن التستسترون في نقطة مجاورة أخرى من الدماغ العدوانية والتهيج الجنسي فعلاً ، وأما الحقن بين هاتين النقطتين فسبب سلوكاً « مختلطاً » ، حيث تناوبت العدوانية مع ظهور مظاهر العناية وردود الفعل الأمومية . ويمكن أن يوجد في هذا بعض الإشارة إلى الأساس الفيزيولوجي العصبي للتناقض الوجداني للأحاسيس الجنسية التي تختلط فيها العدوانية مع الحنان بنفس الوقت . وهنا لا بد من أخذ تكاملية الجهاز العصبي بعين الاعتبار ، ومن ضمنها « الدماغ الانفعالي » . فإن إثارة المناطق نفسها من الدماغ يمكن أن لا تسبب فقط ردود الفعل التي ذكرها ماك لين بل وردود أخرى كثيرة لا يمكن أن تنعت بالجنسية . ويفيد الشم عند الحيوانات ليس كمستقبل جنسي أساسي فقط ، بل وكوسيلة هامة للاهتداء ، وكذلك فإن آلية جنسية تلقائية مثل التعوظ يمكن أن تكون عنصراً لسلوك جنسي أو لا جنسي .

وأوضحت إنجازات الفيزيولوجيا العصبية بشكل جلي عدم إمكانية التفسير

الوحيد السبب Monocausal للجنس . وإن أشهر الأخصائيين في هذا المجال ، « أويلين » مثلاً ، يحذرون بإصرار من وهم الانتقال السهل من التحكّم التجريبي بردود الفعل الجنسية المنعزلة إلى « إدراة » وتصحيح السلوك الجنسي عند الإنسان بالوسائل الجراحية العصبية كتشكيل جهازي . وينبّه هؤلاء المختصون كذلك إلى غموض وإبهام مفهوم « المراكز الجنسية المتوضعة في الدماغ » نفسه ، وكذلك إلى تعدد وظائف الكثير من الآليات الدماغية المنظّمة للسلوك الجنسي ، مشيرين في الوقت نفسه إلى مبدأ وحدة وتكامل الجملة العصبي المركزي .

وليس لهذه المسألة اهمية نظرية فقط . فلقد استغرق الجراحون العصبيون من جمهورية ألمانية الاتحادية في أعوام الستينيات بالإنجازات التجريبية للفيزيولوجيا العصبية ولم ينتبهوا جيداً لمدى صعوبة المسألة ، فصاروا يجرون عمليات جراحية على منطقة الوطاء (تحت المهاد) وذلك بغية الشفاء من الشذوذات الجنسية كالسادية وعشق الأطفال . . . وغيرها . وقد تم وصف (75) عملية من هذا النوع . وكانت النتائج مدعاة للرثاء . ففي بعض الحالات ألحقت العمليات ضرراً شديداً بالصحة النفسية للمرضى ، وفي حالات أخرى بدت بدون فائدة . فمثلاً ، تعرّض رجل « عاشق أطفال » مع تخيلات سادية ـ مازوخية للتداخل الجراحي على منطقة الوطاء وبعد عامين ونصف أخرج من السجن . ولكن ما أن توقف عن تناول مضادات الأندروجينات المنقصة للرغبة الجنسية حتّى قتل طفل عمره / 10 / سنوات.وفي نهاية المطاف وبعد النقد الشديد من قبل الجمعية الجنسية الألمانية منعت حكومة ألمانية الاتحادية إجراء مثل هذه العمليات .

يلاحظ مثل هذا الامتناع عن السببية الوحيدة (التفسير بسبب واحد) في علم الغدد الصم أيضاً . فبعد أن تمّ البرهان على أن شدة التهييج الجنسي ومستوى النشاط الجنسي عند الرجال والنساء على السواء يتوقفان على مستوى الأندروجينات (يطلق على الأندروجين غالباً « هرمون الليبدو (الكرع) » ، صار الكثير من العلماء يفكرون بأنهم حصلوا على إمكانية واسعة في التحكم بالعواطف الشبقية والسلوك الجنسي عند

الناس . ولكنه سرعان ما تبين أن الأندروجينات تؤثر فقط على شدة الرغبة الجنسية وليس على محتواها . وبكلمة أخرى ، بمساعدة المعالجة الهرمونية الموافقة يمكن زيادة أو إنقاص التهيج الجنسي ولكن لا يمكن تبديل الميل الجنسي للشخصية ، كتحويل الشخص الجنوسي إلى غيري . وبعد ذلك ، كما في بحوث التنظيم الهرموني للتمايز الجنسي ، ظهرت قيود جديدة ، مثل الحساسية المختلفة للهرمونات الجنسية تبعاً للجنس والسن وبعض الخصائص الفردية . وتبيَّن من التجارب على الحيوانات على أن الهرمونات نفسها لا تؤثر بشكل واحد على مختلف مكوّنات السلوك الجنسي . فمثلاً عند « الرئيسات » (القرود الشبيهة بالإنسان) يشتمل السلوك الجنسي للأنثى على ثلاثة مكونات : الجاذبية أي ما يجعلها مثيرة جنسياً للذكر ، المناورة في القبول Proceptivité أي الحركات والسلوك الآخر التي تدعو الأنثى بها الذكر للسفاد ، والتقبُّل Receptivite أي جاهزية الأنثى لقبول الذكر . وتبين أن هذه الأنواع المختلفة من السلوك تنبَّه وتنشَّط من قبل هرمونات مختلفة : الجاذبية يتم تنبيهها تحت تأثير الأستروجينات على المهبل ، المناورة في القبول على الأندروجينات ، وأمّا طبيعة ردود الفعل في التقبُّل فما زالت غير واضحة . وكما يشير « د . هيربرت » فإنه من الضروري التفريق ليس بين التأثيرات الجسمية والسلوكية للهرمونات ، بل والتحديد الدقيق لحساسية مختلف مكونات السلوك الجنسي لهذا الهرمون أو ذاك . وإنَّ عدم التماثل في أهمية العوامل الدوائية العصبية المتعلقة بالسلوك الجنسي تنسحب كذلك على الأمينات الوحيدة (Monoamine) [«ديفيرسون د . م»وآخرون ، 1984] . فمع أن هذه المواد يمكنها أن تبدي تأثيرا إيجابياً أو سلبياً على الجنس المذكر ، والمؤنث على الأرجح ، فإنَّ نفس هذه المحضّرات قد تؤثر على مكونات مختلفة للسلوك الجنسي (مثلاً على النعوظ والدفق) وفي اتجاهات متعاكسة .

إنَّ مقارنة مستوى النشاط الجنسي (تواتر الاتصالات الجنسية وغيرها) والاهتمامات الشبقية عند بعض المجموعات من الرجال الشباب مع كمية هرمون التستسترون في المصورة (البلازما) الدموية لم تسفر عن وجود ارتباطات هامة . وأن

التباين في مستويات التستسترون ، الموجود ضمن الحدود الطبيعية ، لا يفسِّر الاختلافات في مستوى النشاط الجنسي والاهتمامات الشبقية . وكشفت مقارنة ديناميكية السلوك الجنسي مع كمية التستسترون عند / ١١ / من الأزواج خلال ثلاث دورات طمثية (حيضية) مع العلم أن المقارنة شملت الطبيعة الهرمونية لكلا القرينين ، عن وجود ارتباطات متبادلة أكثر دقةً وتعقيداً أيضاً . على ما يبدو ، يمكن للعوامل الهرمونية أن تكون حاسمة لأجل نشوء بعض ردود الفعل الجنسية المنعزلة من النوع الانعكاسي ، ولكنَّ هذه العوامل ليست كافية لتفسير السلوك الجنسي كنظام متكامل . وقد لاحظ « بيتش » بحق أن الفرضية القائلة بتأثير الهرمونات على السلوك والتي تقوم بنمذجة الإرتباطات المتبادلة بين المنبهات وردود الفعل ، تفترض منذ البداية وجود علاقة متبادلة مستقرة تستطيع الهرمونات التأثير من خلالها ، مع أن تكوُّن هذا النظام من الارتباطات يتضمَّن التجربة الشخصية والتعلم . وتبين من الملاحظات العديدة على الأطفال البالغين بشكل مبكر أن حصول البلوغ الهرموني لا يترافق عندهم بنفس المستوى من التطور الجنسي النفسي (ظهور الاهتمامات الشبقية والعناية وغيرها) الذي يتوقف أكثر على التربية والتجربة الجنسية الخاصة منه على الهرمونات . ولا يستجيب الرجال الذين يعانون من نقص الأقناد (Hypogenodism) على المنبهات الجنسية ، مع أنهم يعرفون أهميتها ، ولا تتم هذه الاستجابة إلاَّ بعد رفع مستوى هرمون التستسترون في عضويتهم صنعياً . وبكلمة أخرى ، فإن السلوك الجنسي النفسي الطبيعي هو نتيجة جهود مشتركة للطبيعة والتربية . من هنا لا بد من التفريق بين النواحي الكمية والكيفية للجنس .

وتقاس الناحية الكمية أو الطاقية للجنس بشدة ومدة تواتر ردود الفعل الجنسية . يقدم « غ . س . فاسيلتشنكو » وصفاً منهجياً وتفسيراً لهذه الناحية في مؤلفه بعنوان « البنية الجنسية للفرد » والتي يعرفها بـ « تجمع لصفات بيولوجية ثابتة ومنظَّمة بتأثير عوامل وراثية وبشروط التطور في مرحلة ما قبل الولادة وفي المراحل المبكرة من تطور الفرد ، وتحدد البنية الجنسية سعة الإحتياجات الفردية في مستوى معين من النشاط

الجنسي وتصف المقاومة الفردية للعوامل الممرضة التي تؤثر بشكل انتقائي على المجال الجنسي » وتتحدد هذه للناحية الكمية عند الرجال بالموجِّهات الأساسية التالية : سن استيقاظ الليبيدو (الكرع) وسن الدفق الأول والإفراط الأعظمي (عدد مرات الدفق في اليوم) وسن الدخول في النظم الفيزيولوجي الشرطي ، أي مستوى النشاط الجنسي المستقر والأقرب أعظمياً للمتطلبات الفيزيولوجية والبنيوية ، وهناك أيضاً معدّلان يتعلقان بالنمط الوراثي ، أي المؤشر المُدوَّري (Trochanteric) وهو نسبة طول القامة إلى طول الطرفين السفليين) وبطبيعة نمو الشعر في منطقة العانة . . وتتعرَّف الأنماط المختلفة للبنية الجنسية في مصطلحات كمية مثل « ضعيفة » و « ومتوسطة » و « شديدة » .

تأتي أهمية مفهوم البنية الجنسية من كونه يأخذ بالمدخل الفردي لهذه البنية حتى لا يتم إلباس كل الناس أحذية من قياس واحد . ولكن شدة ومدة وتواتر التهيج الجنسي لا تقول لنا شيئاً عن طبيعة السلوك الجنسي الواقعي للفرد حتى على المستوى الفيزيولوجي بحد ذاته . فالرجل ذو البنية الجنسية القوية يمكن أن يتزوج باكراً ويعيش حياة جنسية فعّالة أو أن يقيم علاقات جنسية واسعة مع أكثر من امرأة ، وإمّا أن يحصل على الإشباع الجنسي عن طريق الإستمناء ، أو يعيش كناسك من القرون الوسطى متمنعاً عن « الملذات الجسدية » (على الرغم من أن تحقيق هذا الأمر بالنسبة لهذا النوع من الرجال أصعب بكثير منه عند ذوي المتطلبات الجنسية الأقل) . ويتوقف هذا على الكثير من العوامل الأخرى الفيزيولوجية ـ النفسية والإجتماعية والتي لا نعرف عنها للأسف إلّا القليل جداً .

إلى جانب التوازن الهرموني الذاتي توجد ، على ما يبدو ، علاقة ثابتة بين البنية الجنسية وبين البنية الجسدية والمزاج . يتمثّل الخط الأول لهذه العلاقة في مخطط غ . س . فاسيلتشنكو بالمؤشر المدوّري . وقيلت في الأدب الجنسي فكرة حول أن درجة الذكورة / الأنوثة في السلوك البشري ، ومنه السلوك الجنسي ، تتلازم مع خصائص بنية الجسم . ولكن غالباً ما تتوسط العوامل النفسية ، ومنها الوعي الذاتي ، بين علاقتي

السلوك الجنسي والبنية الجسدية ، وتتحدد العوامل النفسية بدورها بالوسط الإجتماعي وبالتربية . وهناك معطيات أكثر جدية حول تبعية نمط السلوك الجنسي للمزاج التي تنعكس من خلاله خصائص الجهاز العصبي . وإن مستوى ديناميكية ونشاط واتزان العمليات العصبية تؤثر بدون شك على الجنس ؛ ويشغل تقدير هذه العوامل حيّزاً هاماً في اللّوائح التشخيصية للمركز العلمي المنهجي الإتحادي لمسائل الجنس المرضي بإشراف « غ . س . فاسيلتشنكو » (في الاتحاد السوفييتي - المترجم) .

ويعلق عالم النفس الإنكليزي المعروف « هانس يورغين آيزنيك » أهمية حاسمة ، بالنسبة للمحتمات البيولوجية للجنس ، على الميّزات الانفتاحية (تفضيل الميول والانطباعات والنشاطات الخارجية) والانطوائية (introversie - الميل نحو التجربة الداخلية والأفكار حول الماضي والمستقبل . . . الخ) التي تقاس باختبارات خاصة . وتمتلك الإنفتاحية ومكوناتها النفسية المقترحة - الاندفاعية والمعاشرة وصفات اجتماعية بيولوجية معقدة[1] . وبما أن الإنفتاحية ، برأي « آيزنيك » ، مرتبطة بتهييج أقل للقشرة الدماغية وبالتالي بنقص في المراقبة الذاتية والضبط الإنفعالي ، فإنّ السلوك الجنسي للأشخاص الإنفتاحيين يكون أكثر مخاطرة منه عند الإنطوائيين . وقد كشف مقارنة التجربة الجنسية لتوائم البيضة والبيضتين (153 رجل و 339 امرأة) أنه وانطلاقاً مما يسمّى بعامل الليبيدو - الكرع - (النشاط الجنسي الزائد والتهيج المرتفع والعدوانية والاستعداد النسبي لتقبُّل الأشكال المجردة اللاّشخصية من المعاشرة الجنسية ، وبالوقت نفسه ، مع معدلات منخفضة لمؤشري الحياء والحشمة) فإن الفروق الوراثية تفسّر حوالي 67٪ من مجموع الحالات . وحتى بعد حسم نسبة ما نتيجة للعيوب في طرائق البحث وولع « آيزنيك » بالبيولوجيا ، تبقى هذه المعطيات جديرة بالإهتمام . وكان من الغريب لو أن نمط السلوك الجنسي لا يمتلك أية محتّمات وراثية .

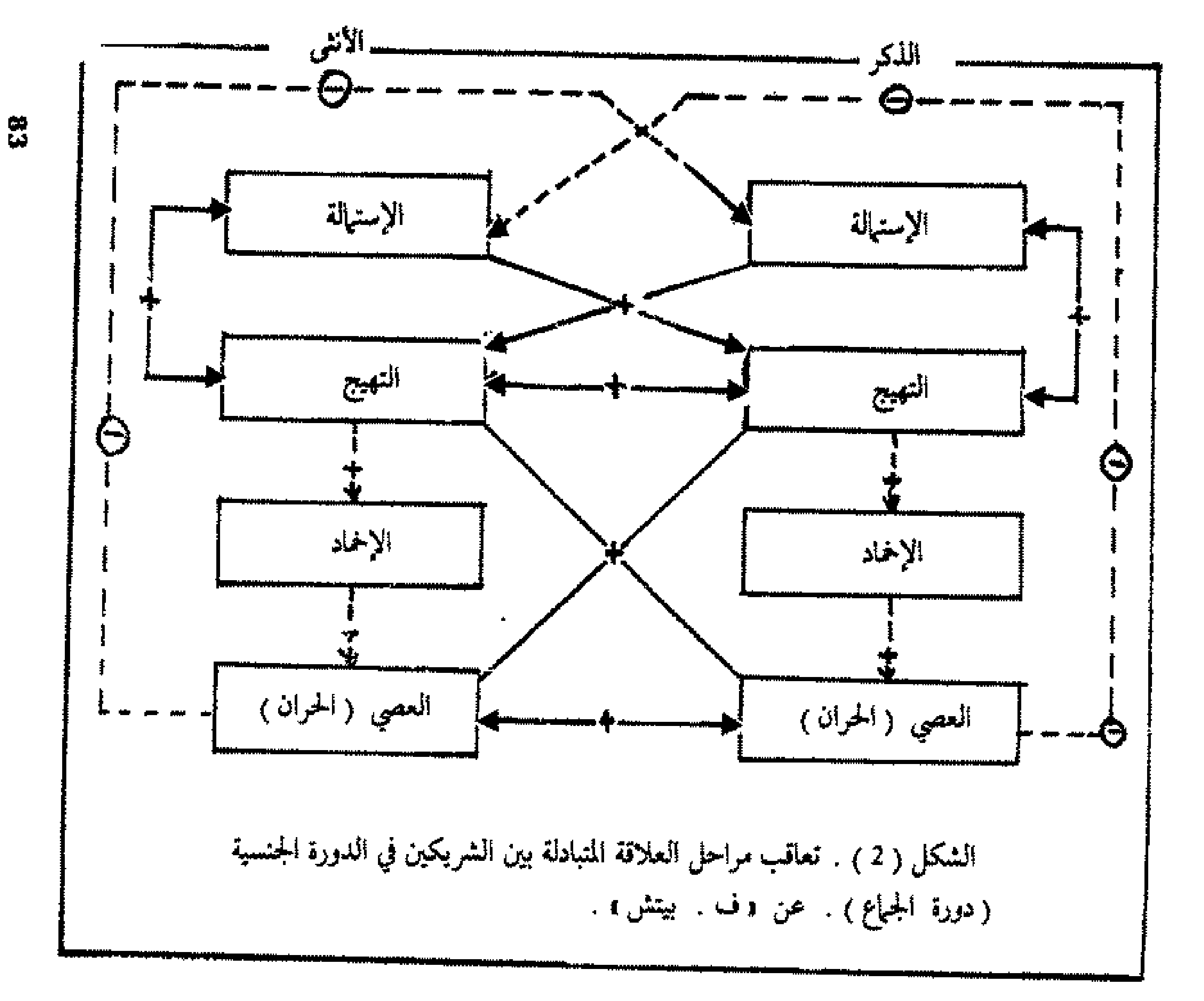
---

1 - ينتقد الكثير من العلماء « آيزنيك » بحق لتضخيمه العوامل الوراثية في تطور الجنس وما يرتبط بهذا من استنتاجات سياسية رجعية ، ولكن هناك الكثير من علماء النفس يشاطرونه الرأي بصدد الطبيعة الولادية للانفتاحية .

إنَّ البنية الجنسية «الجسدية والمزاج والمقاييس الأخرى تحدِّد المواقف الجنسية النفسية وسلوك الفرد ليس مباشرة بل من خلال السيناريو الجنسي (أُدخل هذا المصطلح من قبل عالمي الإجتماع الأمريكيين « جون غانون » و « أوليام سايمون ») الذي يتكون تحت تأثير التعلم في عملية التطور الفردية للشخصية . وإنَّ السيناريو الجنسي كتعدد لأشكال البرنامج السلوكي والذي لا يستغني عنه أي سلوك اجتماعي ، إذ يعينُ مسبقاً نمط الشريك الجنسي الممكن والمفضَّل والمثيرات الشبقية ومتطلبات مكان ووقت وظروف الخلوة الجنسية وأساليب تعليلها وتبريرها . وستتفحَّص هذه العوامل بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن سيكولوجيا الجنس وقوانين تكوُّن الميل الجنسي . ولكن بيولوجيا الجنس لا تنحصر فقط بالعمليات الداخلية المنشأ . وتشترط ، عادة ، ردود الفعل الجنسية العفوية ، وكذلك الأفعال الموجَّهة التأثيرات المتبادلة بين فردين أو أكثر ، وفي كل مرحلة من مراحل الدورة الجنسية يساهم سلوك أحد الشريكين كمنبِّه لسلوك الآخر . وهذا هو حسب « بيتش » مبدأ التكامل المتبادل بين المنبِّه ورد الفعل ، وهو يتابع هذا الفعل ورد الفعل في أربع مراحل للدورة الجنسية (دورة الجماع) (الشكل رقم 2) .

ـ مرحلة الإستمالة ، وتتصف بظهور الإهتمام الجنسي سواء عند الذكر أو الأنثى . وتتنظَّم هذه العملية عند الحيوانات بواسطة الهرمونات ويحدث الإتصال المتوافق بفضل الفيرمونات (Pheromones) . أما عند الإنسان فإن عوامل الجاذبية الجنسية للشريك متعددة الأشكال للغاية ، وغالباً ما تكون هذه الأشكال أو « المخططات المعرفية » مكتسبةً خلال عملية التطور الفردية .

تثير الجاذبية الجنسية عند الشريك التهيج الجنسي الذي لا يتظاهر بردود فعل فيزيولوجية متوافقة فقط ، بل وبأشكال وصالية سلوكية مميزة لكل نوع حيواني (« المداعبة » من قبل الذكر والسلوك « المثير » للأنثى . . . الخ) . وتتجلَّى من خلال ذلك انتقائية فردية محدَّدة وأحياناً يتبين عدم التوافق بين الشريكين . وتمَّ البرهان على أن الذكور لا يستجيبون بالشكل نفسه لمختلف الإناث (درس هذا الموضوع عند الجرذان



الشكل (2) . تعاقب مراحل العلاقة المتبادلة بين الشريكين في الدورة الجنسية (دورة الجماع) . عن « ف . بيتش » .

والكلاب وقرود الشمبانزي) . ولكن عند معظم ذكور الثديات يكون هذا الأمر أقل وضوحاً منه عند الإناث . وإنَّ عرض السلوك الدّال على التهييج الجنسي يزيد من جاذبية فرد ما عند شريكه ، ويثير عند الأخير رد فعل جنسي جوابي ، منبهاً الشريكين إلى الإنتقال إلى المرحلة التالية وهي مرحلة الإخماد أي الجماع .

يتم في مرحلة الإخماد Consommationأسلوب مميز للإقتران عند كل نوع حيواني . وبرأي علماء الحيوان فإنَّ طقس الجماع عند معظم الثديات موحَّد الشكل بشكل صارم ؛ فلا تحاول الحيوانات فردنة وتنويع تقنيته ، وليس عندها شبق بالمعنى البشري للكلمة . إن الفروق بين الأنواع في مدة وتواتر الجماع شاسعة جداً وإن مدة العملية الجنسية عند الحيوانات أقلّ عادة منها عند الإنسان . يستمر الإيلاج عند الفيلة أقل من دقيقة ، وعند الثيران 23 ثانية ، وبالمقابل يكون الجماع أكثر تواتراً . هذا وقد أحصى العلماء 77 جماعاً لأحد الثيران خلال 6 ساعات ، و360 جماعاً في 8 أيام لزوج من الأسود في حديقة حيوان مدينة « درسدن » . ومع هذا تبقى التباينات الفردية في هذا المضمار كثيرة جداً . وتجدر الإشارة هنا إلى الفعل المتبادل التالي : يستفذّ نشاط الذكر ردود فعل موافقة من قبل الأنثى وتقوم هذه الأفعال بدورها بتعزيز دور الذكر مما يقود الجماع إلى خاتمته السعيدة .

تتصف المرحلة الأخيرة ، مرحلة ما بعد الإخماد (العصي أو الحران ـ Refractaire) باسترخاء عام وهبوط مؤقت في ردود الفعل على تلك المنبهات التي ساعدت في البداية على الإنجذاب الجنسي نحو الشريك . وتصبح جميع ذكور الثديات مؤقتاً بعد الدفق « عنينة » (تتوقف مرحلة العصي على النوع والسن والفرد وبشكل خاص على عدد مرات الدفق السابقة) ؛ وتبقى الإناث ـ في أغلب الحالات ـ جاهزة جنسياً خلال فترة الخصوبة (النزو) ويتفوقن كثيراً على الذكور في هذا المجال ، مع أن إمكانية تقبل الأنثى وميلها للمبادرة بعد جماع ناجح تتناقص عادة بشكل مؤقت . وقد لوحظ عند عدة أنواع حيوانية ما يسمّى بعامل « كوليج[1] » : فعند ظهور

---

1 ـ ترتبط تسمية هذه الظاهرة بحادثة تاريخية . فقد قيل أنه عند زيارة الرئيس

أنثى جديدة جذابة جنسياً تستعاد قدرة الذكر لجماعها بصورة أسرع منها مع الأنثى التي كان قد جامعها . ولكن ما هي طبيعة الفيزيولوجيا النفسية للعملية الجنسية عند الإنسان ؟

حتى عام 1966 ، عندما ظهر العمل الكلاسيكي للعالمين الأمريكيين ، الطبيب النسائي « أوليام ماسترس » وعالم النفس « فيرجيني جونسون » (ردود الفعل الجنسية عند البشر) ، كان علم الجنس السريري قد تعامل مع حالات منفردة فقط . لقد عالج الأطباء الرجال من « العنانة » والنساء من « البرودة الجنسية » وقدموا نصائح حول مشاكل الحياة الجنسية ، ولكنهم لم يشركوا الشريك الجنسي - الزوج أو الزوجة - في المعالجة إلاّ عرضيّاً . أما كيف تحصل العملية الجنسية واقعياً وما هي طبيعة ردود الفعل الفيزيولوجية النفسية للشريكين نحو بعضهما البعض في المراحل المختلفة للدورة الجنسية ، فقد عرفها العلماء فقط من خلال تجربتهم الخاصة ومن أحاديث الأصدقاء والمرضى . فهل يمكن الحكم موضوعياً عن شيء لا نستطيع مراقبته ؟ هذا وقد كانت فيزيولوجية الإيغاف Orgasm الأنثوي محيرة بشكل خاص . فإذا لم نعرف طبيعة الإيغاف الأنثوي ، هل نستطيع الوصول إلى التوافق المطلوب في ردود الفعل الجنسية المذكرة والمؤنثة وذلك حتى يحصل الشريكان على الإرضاء الأعظمي ؟ وكان « كينزي » قد حلم بإجراء البحوث المخبرية للعملية الجنسية . ولكن هذه الفكرة بدت في الواقع تدنيساً لتقاليد من الحياء استمرت قرون عدة ، فهل كانت هذه التقاليد شاملة ؟ لقد ذكرت حوادث غير قليلة في الأدب الطبي والإتنوغرافي جرت فيها العملية الجنسية أمام أعين المشاهدين . وهكذا فلماذا لا يكون هذا الأمر ممكناً في المخبر ؟ .

كان « أوليام ماسترس » قد اهتم بهذه المشكلة منذ أن كان طالباً على مقاعد

الأمريكي « ك . كوليج » لمزرعة حيوانية لفتت زوجته الإنتباه إلى النشاط الجنسي غير العادي لثور أصيل . « أنت محقة ياعزيزتي - وافق كوليج - ولكن هل لاحظت أنه لم يعلُ للمرة الثانية البقرة نفسها أبداً ؟ » .

الدراسة . أمّا معلموه فقد حذروه من أن المخاطرة في مثل هذه القضية ممكنة فقط عند توفر الشروط الثلاثة التالية : أن يقوم بها إنسان راشد تجاوز الأربعين من العمر ، وله سمعة مهنية حسنة في مجالات معرفية مختلفة ؛ ويستند على دعم مادي وأخلاقي من جامعة كبيرة . حقق « ماسترس » هذه الشروط - (ما عدا الثاني ، وكان عمره 38 سنة) في عام 1954 ، حيث بدأ مع « جونسون » بتنفيذ « مشروع دراسة الجنس » الذي سميٌ فيما بعد بـ « مشروع دراسة بيولوجيا التناسل » تحت رعاية كلية الطب من جامعة « واشنطن » في مدينة « سينت لويسي » . وأسس « ماسترس » في عام 1964 في « سينت لويسي » وبوسائله الخاصة - المعهد الخاص بدراسة بيولوجيا التناسل الذي يعمل بنجاح حتى الوقت الراهن .

وقد بدأ « ماسترس » و « جونسون » الدراسة بالطلب من زملائهم وأصدقائهم في الجامعة أن يرسلوا إليهم أولئك الناس المستعدين لأن يكونوا موضوعاً للدراسة الجنسية . هذا وقد وصل 1273 متطوعاً وتم استجوابهم بالتفصيل عن حياتهم الجنسية (كانت الأسئلة شبيهة عموماً بالأسئلة التي طرحها « كينزي ») ، بالإضافة لذلك ، قام هؤلاء بملء استمارة طبية . وسمحت المقابلات المفصّلة التي أجراها العالمان بالتعرف شخصياً على المدروسين وبإقامة صلات ودية معهم وبالإبعاد اللّبق لأولئك الذين لا يصلحون لأسباب مختلفة للبحوث اللّاحقة . وبعد كتابة « القصة » الجنسية ومناقشة المسائل المتعلقة بها ، تعرّض المتطوعون للفحص الطبي بشكل عام والجنسي خاصة . وقد تمّ اختيار / 382 / امرأة و / 312 / رجلاً لأجل التجربة (296 من الأزواج ، والآخرين غير متزوجين) من أعمار تتراوح بين 18 و 78 سنة . وقدّمت لهم المساعدة حتى يعتادوا على الظروف المخبرية وليتعرّفوا على وظائف جميع الأجهزة ، بعد ذلك وخلال سلسلة العمليات الجنسية سُجّلت بدقة ردود الفعل الفيزيولوجية عند كلا الشريكين . وبالإضافة لذلك ، أجريت عدة تجارب من نمط الإستمناء ، فقد قامت بعض النساء بالاستمناء باستخدام أعضاء تناسلية صنعية من مختلف القياسات ، وقامت الأجهزة الألكترونية بتسجيل ردود الفعل الفيزيولوجية الدقيقة للأعضاء

التناسلية . وفي النهاية تمَّ للعالمين مراقبة / 7500 / دورة جنسية مؤنثة مكتملة و / 2500 / دورة مذكرة . فمع أن الشروط المخبرية تركت أثرها على ردود الفعل الجنسية عند المدروسين (عند الرجال أكثر من النساء) فقد كانت النتائج المحققة في غاية الأهمية .

وهكذا لأول مرة وصفت موضوعياً وصيغت المراحل الرئيسية للدورة الجنسية : 1) التهييج ؛ 2) البلاتو « Plateau » عندمالا يزداد التهيج الجنسي ويستقر عند مستوى معين ؛ 3) الإيغاف« Orgasm »(و 4) « الإرتخاء » ، أي إزالة الإجهاد وآثار هذه المراحل عند المرأة والرجل . وقد عُرف عن هذه المراحل أو شبيهاتها منذ القدم ووصفت مرات عديدة في المؤلفات الأدبية ، ولكن قبل « ماسترس » و « جونسون » لم يتصور أحد الدورة الجنسية بالتفصيل كنظام مزدوج من التأثيرات المتبادلة . وبهذا تم دحض، ووضعت تحت الشك ، الكثير من التصورات التقليدية . مثل اعتبار ضخامة القضيب من قبل العامة على أنها من أهم مؤشرات الرجولة وشرط فعالية الرجل الجنسية ، ويبدا هذا من الناحية الفيزيولوجية غير أساسي . فأولاً ، لا يتناسب طول القضيب في حالة الراحة مع طوله أثناء النعوظ إلاّ جزئياً[1] ، فالقضيب القصير يزداد طوله عند النعوظ أكثر من الطويل . وثانياً ، كشفت تجارب الإستمناء عند النساء باستعمال أعضاء تناسلية مذكرة ذات أطوال وأقطار مختلفة عن مرونة الأعضاء التناسلية الأنثوية العالية التي يمكن أن تتلائم بسرعة مع قياسات القضيب . وإنَّ مستوى ومدة النعوظ وكذلك تقنية الممارسة الجنسية تؤثر على الإرضاء الجنسي عند المرأة أكثر بكثير من مقاييس القضيب .

واهتز كذلك التصور الفرويدي القديم حول نمطي الإيغاف (Orgasm) المؤنث : البظري والمهبلي ، فقد اعتبر « فرويد » النمط الأول علامة لاسترجال المرأة

---

1 ـ حسب « غ . س . فاسيلتشنكو » ، فإن طول القضيب في الحالة الطبيعية أثناء الراحة يتراوح بين 5 و 12 سم ، أما حسب ماسترس وجونسون فيتراوح طوله بين 6 و 14 سم ، ويبلغ وسطياً من 8,5 إلى 10,5 سم .

وسيباً » لبرودتها المهبلية » . هذا التحديد الذي أحدث جزعاً عند النساء اللواتي يشعرن بأن أحاسيسهنّ الشبقية الجنسية لا تتوضع في المهبل ، بل في البظر . واستنتج « ماسترس » و « جونسون » بأن الإيغاف المهبلي لوحده غير موجود من الناحية الفيزيولوجية .

هذا وقد أجرى « ماسترس و جونسون » سلسلة من الأبحاث التجريبية تمّ بواسطتها تقييم بعض المقاييس الفيزيولوجية لردود الفعل الجنسية البشرية (كالنبض والضغط الشرياني وتخطيط القلب الكهربي وتخطيط الدماغ الكهربي . . . الخ) . وإن التطور الهائل للأجهزة الطبية وظهور أجهزة لقياس درجة النعوظ وآلات مصغّرة لتسجيل ردود الفعل الفيزيولوجية / وغيرها ، يسمح في الوقت الحاضر بتسجيل الإستجابات الجنسية دون الإخلال بطبيعتها الغرامية . ويمتلك مبدأ المعالجة الجنسية للزوجين معاً والذي أعدّه « ماسترس » و « جونسون » أهمية قصوى ، إذ أنه يساعد على التكيف المتبادل للشريكين ليس على أساس الأساليب الفيزيولوجية النفسية فقط بل والإجتماعية النفسية أيضاً . حصلت أعمال « ماسترس » و « جونسون » فوراً على اعتراف علمي ولكن ليس بدون تعليقات . وأشار « غ . س . فاسيلتشكو » مثلاً إلى عيوب بعض الطرق التشخيصية لماسترس وجونسون كتسليمهما بالمصادر النفسية وعدم التقدير الكافي للعوامل الجسدية والخلطية العصبية منها خاصة . وأشار علماء الإجتماع إلى خصوصية ومحدودية عينة الباحثين الأمريكيين ، ونبّهوا في الوقت نفسه إلى أن النتائج التي تم الحصول عليها من هذه العينة يمكن أن لا تتأكّد في أوساط اجتماعية أخرى . وتجري مناقشات كثيرة أيضاً حول « الإيغاف المهبلي » . وبالرغم من آراء « ماسترس » و « جونسون » ، يؤكد الكثير من المعالجين النفسيين وأطباء الأمراض النسائية المعروفين مثل « أ . م . سفيادوش » و « ز . ف . روجانوفسكايا » و « ر . ستوللر » و« س . فيشر » على أنّ النساء يفرّقن بشكل واضح بين الإيغاف المهبلي والبظري . هذا وقد أكدت الأبحاث التالية وجود هذين النوعين / النمطين من الإيغاف Orgasm

ولكن علماء النفس أفصحوا عن أكثر الملاحظات جدية بحق « ماسترس » و

« جونسون » . وبرأي هؤلاء فانَّ « ردود الفعل الجنسية » المدروسة من قبل العالمين الأمريكيين هي عبارة عن استجابات جنسية بيولوجية وفيزيولوجية نفسية يمكن تسجيلها بوسائل فيزيولوجية موضوعية . ولكن السلوك الجنسي للإنسان لا ينحصر بردود الأفعال هذه فقط . عند تقييمه لجهود العالمين « ماسترس » و « جونسون » ، دعا عالم النفس الأمريكي المعروف « ابراهام ماسلو » لإكمال هذا الجهد في الوقت نفسه ببحوث يدرس فيها الجنس في سياق العلاقات العاطفية والغرامية والشخصية ، وكذلك بالإرتباط مع الأحاسيس السامية والصوفية ، حيث تعتبر الخلوة الجسدية فعلاً مقدساً واحتفالاً دينياً . وهذا لا يمكن أن يتحقق بالطبع مخبرياً .

هذا وقد كان لدراسة الدورة الجنسية كعملية موحدة للأفعال المتبادلة المزدوجة أهميةً منهجيةً هائلة . وبدأت على هذا الأساس في نهاية السبعينيات الدراسة التجريبية لبعض الظواهر الهامة مثل تزامن العمليات الهرمونية والفيزيولوجية النفسية عند الزوجين . . . وغيرها . ولكن بنية السلوك الجنسي لأي حيوان تتعلق ببرنامج نوعي معقَّد توضع رموزه جزئياً بشكل وراثي والجزء الآخر يتم إعداده ووعيه من قبل الأفراد عن طريق التعلم ومن خلال عملية الإختلاط مع أناس مشابهين . ولأجل فهم هذه الناحية الهامة لبيولوجية الجنس لا بد من التوجه نحو معطيات البيولوجيا التطورية وعلم الطباع والعادات والإنتربولوجيا .

من الحيوانات إلى الإنسان

إن أولى المحاولات بهدف المقارنة المنهجية بين السلوك الجنسي عند الحيوانات وعند الإنسان هي كتاب « فورد » و « بيتش » الذي احتوى للمرة الأولى كل المعلومات المعروفة في ذلك الوقت عن أساليب الجماع والإثارة الجنسية وشروط الممارسة الجنسية وطرائق استمالة الشريك والإثارة الذاتية والسلوك الجنوسي والعلاقات الجنسية بين أفراد أنواع حيوانية مختلفة ومراحل البلوغ الجنسي وأدوار الخصوبة وغيرها عند مختلف الأنواع

البيولوجية وفي مجتمعات بشرية مختلفة . ومع التطور اللاّحق للفيزيولوجيا التطورية وعلم النفس المقارن وخصوصاً علم الطباع والعادات الذي يدرس سلوك الحيوانات في الظروف الطبيعية لحيواتها ، ظهرت دراسات كثيرة مختصة ومكرّسة للسلوك الجنسي والتوالدي عند مختلف الأنواع الحيوانية . وتشتمل البحوث التجريبية على أفراد معينين وملاحظة الأفعال المتبادلة للذكر والأنثى في كافة مراحل الدورة الجنسية وكذلك علاقة هذا كله مع قوانين حياة الحيوانات داخل المجموعات أو القطعان . وتمّ في سياق هذه الدراسات التخلص من ثلاثة أخطاء رئيسية وقعت فيها البحوث المبكرة : أولاً ، أعتقد بأن السلوك الجنسي عند الحيوانات غريزيٌّ بشكل كامل وينظَّم من قبل برنامج داخل العضوية لا يقبل أي التباس . والأمر ليس كذلك في الواقع ، فإلى جانب البرنامج الوراثي تمتلك الحيوانات العليا آليات خاصة للتعلم الفردي والتي عند غيابها تبدو الحيوانات الطبيعية فيزيولوجياً والسليمة غير قادرة على التكاثر . ثانياً ، تبيّنَ خطأ تفسير الملامح الخارجية وبعض مكونات السلوك الحيواني باستخدام مصطلحات « بشرية » ، وبالتماثل مع السلوك الجنسي عند الإنسان . ثالثاً ، أُشير إلى عدم صحة دراسة الآليات الذاتية والاستجابات الجنسية من خلال علاقتها بالسلوك التوالدي بدون اعتبار النواحي الأخرى من حياة الحيوان .

هذا ولا يمكن فهم الجنس البشري إذا تجاوزنا معطيات التطور عند الحيوانات . غير أن إعادة بناء مسيرة التطور الحيواني تتعقد لأسباب مختلفة أهمها النقص في المعلومات . وإنّ « بيتش » الذي يعتبر كلاسيكياً بحق في هذا المجال يدعو للحذر عند مقارنة السلوك الجنسي لأنواع حيوانية مختلفة . ويؤكد المستوى الوصفي للمقارنة بعض التشابهات الشكلية في السلوك بين الأنواع الحيوانية المختلفة . ومهما كانت هذه التشابهات جذّابة فهي لا تُفسِّر شيئاً بحد ذاتها . فمثلاً ، من المعروف أن بعض الرجال وبعض ذكور النمس يعرّضون شركاءهم الجنسيين للألم الجسدي ، غير أنّ هذه الوقائع مأخوذة بشكلٍ منفصل لا تفسِّر بعضها البعض . ومثال آخر على ذلك هو أنه عند الكثير من الثدييات تُستبق العملية الجنسية باتصالات فموية ـ تناسلية ، ولكن هذا لا يفسر

مثل هذه الاتصالات عند البشر . وإن السلوك الجنوسي عند بعض الحيوانات لا يوضّح لنا أسباب السلوك الجنوسي عند الإنسان ولا يبرِّر اعتباره « صحيح بيولوجياً » . فالتشابه ليس برهاناً ولا تفسيراً . ويعتبر التعميم النظري مبرِّراً على المستوى التحليلي فقط ، عندما تقام علاقات سببية ووظائف ملائمة لردود الفعل المقارنة والأشكال السلوكية ، ولكن الأمر هنا في غاية الصعوبة . لقد أعطى التعاون بين علماء البيولوجيا الاجتماعية وعلماء الرموز والعلامات والمحلّلين النفسيين ثماره في السنوات الأخيرة وذلك فيما يتعلق بدراسة الجنس البشري من خلال متابعة مصادر تطوره عند مختلف السلالات الحيوانية . وأوضح « د . رانكور ـ لافيرِيْر » (1985) مثلاً وبشكل حاسم ، بأنّ المشية المنتصبة لا تغير من علاقة المثيرات الشمية والبصرية مع بعضها البعض فقط ، بل وتكوِّن نظاماً جديداً كلياً للإشارات الجنسية ولإمكانية الكبح الواعي للإستجابات الجنسية . . . الخ . ولكن لا بد من التفريق بدقة لما يتعلق بكيفية إعداد هذه أو تلك من البنى السلوكية وأسباب نشأتها [« د . سايمونس » ، 1979] . وإنّ الكثير من التعميمات التي تبدو للهاوي « بديهية » قد تبدو للإختصاصي غير موثوقة أو مبسطة على أقل تقدير . ويسمي « ميلغين د . كونيّر » أربعاً من أمثال هذه الاستنتاجات الخاطئة .

1 . « إن تطور الفرد ليس سوى تكراراً لتطور الأنواع الحيوانية » . وهنا يوجد قسط من الحقيقة . إذ أن تطور الفرد لا يكرر الأطوار البالغة لأشكال التطور السابقة بل فقط ـ ولدرجة معينة فحسب ـ المراحل الباكرة من تطور هذه الأشكال . وبكلمة أخرى ، يمكن أن نجد في سلوك الأطفال شيئاً ما مشتركاً مع سلوك صغار الحيوانات ، ولكن من العبث البحث عن مظاهر السلوك الطفولي في سلوك الحيوانات البالغة .

2 . « كلّما كان الحيوان معقّد البنية أكثر كان نموه أبطأ وكان أقل تطوراً عند الولادة وكانت عروضه السلوكية أكثر انسجاماً وخفّة » إنّ هذا التعميم فظٌّ للغاية . فلا توجد طرائق تسمح بتصنيف كل الأنواع الحيوانية بشكل مترقي . وبالإضافة لذلك ، يتباين الإنسجام والمطاوعة في السلوك حتى عند أنواع قريبة من بعضها البعض ، وهذا لا يتعلق أبداً ببطء النمو . ومع أن الإنسجام السلوكي يزداد مع الاقتراب من الإنسان

عموماً فإنه لا يصح تقديم اقتراحات أكثر ملموسية بهذا الصدد . وأخيراً فإن مستوى التطور عند الولادة هو مفهوم مختلف المعاني في الغالب . فهو يتوقف ليس على القوانين العامة لتطور الكائنات الحيوانية فقط ، بل وعلى الشروط الخاصة لوجود الكائن المعني ، ولهذا السبب بالذات تتطور أعضاء وأنظمة سلوكية مختلفة بوتائر مختلفة أيضاً .

3 . « إذا كان سلوك ما منتشر بشكل واسع عند الأنواع الحيوانية فهو يعتبر ـ مظهراً ثابتاً للفعل ـ أو ـ غريزة ـ وبالتالي فهو مشرووط وراثياً ومن السذاجة القيام بمحاولة تغييره » . إن هذا الجدل الشكلي خاطىء كلياً : **فأولاً** ، إن التشابه ليس تماثلاً ، والكثير من الحيوانات المختلفة يمكن أن تصطدم في تطورها بمشاكل متقاربة تبدو حلولها متشابهة ويمكن أن تقوم بوظائف متشابهة أيضاً ، ولكن تحققها يتم بمساعدة آليات مختلفة . فقد نمت الأجنحة عند الحشرات من الجذع ومن الطرفين الأماميين عند الطيور ، وأما عند الخفافيش فقد نمت من الأصابع . ويذكّر تكوُّن التعلّقات الطفولية بالسلوك الطبيعي أو الإنطباعي impreinting عند الطيور ، إلّا أننا لا نعلم حتّى الآن إنْ كانت آليات هاتين الظاهرتين متماثلة . وثانياً ، تتكون « البنى المسجّلة للفعل » التي أطلق عليها في الماضي تسمية « غرائز » بطرق مختلفة ، منها التعلُّم . إن الأمر « العام والمشترك » لا يعني دائماً أنه « محدّد وراثياً » . وثالثاً ، تتعرض الصفات الوراثية نفسها للتبدل في شروط معروفة .

4 . « إذا كانت الحيوانات مختلفة لهذا الحد فمن الضروري توجيه الإنتباه إلى تلك التي تقف قريبة من الإنسان ، إذ أن هذا يعتبر أكثر دلالة » . وهنا يوجد قسط من الحقيقة أيضاً ، ولكن القرابة في التطور الحيواني هي فقط أحد أهم مبادىء المقارنة بين الأنواع المختلفة ، ومن ضمنها التشابه في السلوك التوالدي والتلائم البيئي والعمليات الحسية الرئيسية للإتصالات . ويجب دائماً الإنتباه إلى الأشياء التي تتم مقارنتها . فمثلاً ، ومن حيث إقامة « الإتحادات الزوجية » وأساليب تدريب الذرية (النسل) فإن الثعالب والأسود تمتلك أمور مشتركة كثيرة مع الإنسان أكثر من أقرب أقربائنا (قرود الشمبانزي) .

ويدفعنا كل هذا إلى ضرورة الحذر كثيراً عند إجراء التعميمات النظرية المبنية على أساس دراسة التطور الحيواني . كما أن أكثر نزعات التطور الجوهرية لأجل فهم الجنس البشري هي التعقيد المستمر والتمايز والإستقلالية الذاتية للأعضاء الجنسية تشريحياً وفيزيولوجياً وسلوكياً . فكلما كان مستوى التعضي البيولوجي للنوع الحيواني أرقى وكان جهاز الأعضاء التوالدية وطرائق تنظيم عمل هذا الجهاز على مستوى العضوية ككل أعقد وذو مستويات متعددة . ويرتبط هذا الرقي كذلك مع تعقد الوظيفة الجنسية واستقلالها الذاتي .

إن ترقي السلوك الجنسي هو أحد شواهد الترقي في السلم الحيواني من السلوك المبرمج بصرامة نحو السلوك الأكثر مرونة وانتقائية . يتوضع مركز التزاوج عند ذكور الحشرات في العقد العصبية البطنية في حين يقوم الدماغ عندها بوظيفة الكبح بصورة أساسية . وهكذا يمكن لأزواج بعض الحشرات أن تتجامع حتى بعد إزالة الرأس بالكامل . وترتبط طبيعة السلوك الجنسي عند الفقاريات بشكل وثيق مع حجم دماغها . ولا تؤدي إزالة 20٪ من دماغ الجرذ الأبيض المخبري الذكر إلى أي خلل في سلوكه الجنسي ، ويمكن لخمس هذه الحيوانات أن تتزاوج بشكل طبيعي حتى عند غياب نصف القشرة المخية . ويؤدي تخريب الفصوص الجبهية عند ذكور القطط إلى اختلال عملية الجماع : فعند وجود الأنثى في دور النزو (الوداق) يسيطر على الذكر التهييج الجنسي الشديد ، ولكنه لا يستطيع أن يؤمن تناسق الحركات اللازم لأجل تحقيق عملية الإيلاج . وتعتبر « الرئيسات » أكثر حساسية للأذيات الدماغية . ومع ازدياد مقاييس الدماغ تزداد أهمية التعلم الإجتماعي والخبرة الفردية وتتناقص بنفس الوقت فعالية التنظيم الهرموني .

وتتعقد بنية السلوك الجنسي نفسها أيضاً . فمع أن العلاقات الجنسية محتمة من حيث نشأتها بضرورة استمرار النوع ، فإن أي حيوان لا يجامع بشكل خاص من أجل التكاثر . ولأجل فهم سلوك التزاوج عند الحيوانات من الضروري أن نتصور تلك المثيرات والمعززات الإيجابية التي تحرضها على ذلك . وعند أغلبية الثديات تعتبر الدورة

الجنسية فصليةً ومحصورة بفترات زمنية محددة بشكل صارم ؛ ويحصل التزاوج في فترة النزو (الوداق) فقط والتي تمثل في الوقت نفسه فترة الخصوبة الأعظمية عند الإناث . ويخضع هذا السلوك لتنظيم هرموني دائم ، وتجيء ردود الأفعال الفيزيولوجية تلقائياً في غالب الأحيان . ولكن اللّوحة تتبدّل عند « الرئيسات » وعند الإنسان بشكل خاص . فيستقل النشاط الجنسي تدريجياً عن الوظيفة التوالدية . ويجامع قرد الشمبانزي الإناث (ولو بالقوة) خارج فترة النزو (الوداق) في بعض الأحيان ، حيث تكون هذه الإناث غير خصوبة بالطبع . أمّا عند الإنسان فلا تنحصر الحياة الجنسية بفصل معين ولا ترتبط كذلك بالدورة الطمثية عند المرأة . وإنّ هذا الضعف النسبي في تأثير الهرمونات وفي وسائط الضبط البيئية (كتأثير العوامل الخارجية من ضوء وحرارة ورطوبة) للسلوك الجنسي الذي يرتبط فيزيولوجياً بترقي الأقسام العليا من الدماغ ، هذه الأقسام التي تضع التأثير المباشر للهرمونات تحت مراقبتها أيضاً .

إن استقلال السلوك الجنسي عن وظيفة التوالد يزيد حتماً من تعدد وتنوع أشكاله . فيصبح هذا السلوك أكثر انتقائية وانتخاباً سواء في علاقته مع مواضيعه الجنسية أم مع شروط وأساليب تحققه . من هنا ينبثق الدور المتعاظم للتعلّم الفردي . وقد درس « بيتش » تبعية السلوك الجنسي عند الجرذان للشروط التي تنمو فيها منذ بداية الأربعينيات من قرننا الحالي . وتمّ فصل صغار الجرذان الذكور عن أمهاتهم في عمر 21 يوماً وربيّ قسم منهم من دون الإختلاط مع الإناث ، في حين عزل القسم الآخر منهم نهائياً . لم تحصل إضطرابات عند جرذان المجموعة الأولى ، أمّا ذكور المجموعة الثانية الذين بلغوا جنسياً فقد لوحظ عدم كفاية تمارين التزاوج عندهم وقام هؤلاء بمحاولات كثيرة للإقتران غير صحيحة بالمقارنة مع أفراد مجموعة المراقبة . وقد أجريت مثل هذه التجارب في العقد الأخير على حيوانات من مختلف الأنواع .

وقد قام الفيزيولوجيان اللينينغراديان « ف . ف . أنتونوف » و « م . م . خانانااسفيلي » بإجراء تجارب على الجراء الذكور (21 جرواً) . حيث تربّت المجموعة الأولى منها ـ مجموعة المراقبة ـ مع الأم والأقران ، في حين تربّى أفراد المجموعة الثانية مع

أمهم فقط وبدون جراء أخرى ، وتركت المجموعة الثالثة بدون أم ولكن وضع كل منها مع جرو مؤنث ، وتمّ فصل جراء المجموعة الرابعة تماماً عن الأقران ، أمّا أفراد المجموعة الخامسة فقد وضع كل منها مع ذكر بالغ وجرو من الجنس نفسه ، وأخيراً المجموعة السادسة التي تكوّنت من جراء فصلت منذ الولادة ووضعت تحت رعاية هرة . وهكذا فالجراء التي رُبيّت بدون الأم وبدون الإختلاط مع الكلاب البالغة أو بمعزل عن الإناث لم يلاحظ على هذه الجراء في المراحل المبكرة أية فروق جوهرية في السلوك التزاوجي بالمقارنة مع أفراد مجموعة المراقبة . ولكن من بين الجراء التي ربيت بمعزل عن أقرانها نجح أثنان ولعدة مرات فقط بالقيام بعملية الإيلاج ، مع أنهم قاموا بحركات غير واثقة كثيرة.وحتى بعد قيامهم ببعض عمليات الإقتران الناجحة فإن تجربتهم هذه لم تتحسن ، وفي الحال امتنعت الإناث عن السماح لهؤلاء من الإقتراب منها .

وتترك تجارب « غاري هارلو » ومساعديه التي أجريت على قرود النسناس (الريزوس)، انطباعاً أكبر . إذ تمّ التحكم باختلاط حديثي الولادة من القردة وتربيتهم بعيداً عن الأم ولكن مع هيكل اصطناعي للأم أو عزلوا بشكل كامل أو كانوا دون أقرانهم ؛ وتوصل العلماء إلى النتيجة الآتية : فالذكور الذين تربوا بمعزل عن أقرانهم وحتى لو كانت الأم موجودة بدوا غير قادرين على الجماع الطبيعي ولم يمكن تصحيح عدم القدرة هذا لاحقاً . وبكلمة أخرى ، لا بد للقرود من بعض التأهيل الإجتماعي (المجتمعة) الجنسي البدني . وإنّ غياب هذا التأهيل يترك أثراً مزدوجاً :

أولاً ، إذا لم يتمكن لسبب ما من الإختلاط واللّعب مع أقرانهم ومع المراهقين فإنهم لا يستطيعون اتقان عملية الجماع في الوقت المناسب (تشغل الألعاب التناسلية ومحاكاة العملية الجنسية حيّزاً هاماً من حياة الحيوانات العليا كلها) . ثانياً ، يتخلّف الصغار الذين تربوا بشكل منعزل بتطورهم العاطفي ولا يستطيعون إعداد أنفسهم لتجارب المعاشرة والإختلاط مع أمثالهم ؛ ويذكّر سلوك هؤلاء بسلوك الأطفال الإنطوائيين ، فيتصرفون مع الشركاء الجنسيين الممكنين بعدوانية أو على العكس ،

يرتعبون امامهم . ويشير « هارلو » إلى أن الاختلاط مع الأقران وما ينتج عنه من احاسيس عاطفية يطبع بطابعه كل تطور الفرد لاحقاً في أغلب الأحيان ، وخاصة ما يتعلق بردود فعله الجنسية وسلوكه . وبهذه الصورة لا يعتبر سلوك الجماع عند فرد ما أمراً منعزلاً ، بل أنه يفترض اتقان الأساليب الإجتماعية الجنسية المميزة لنوع حيواني معين ، تلك الأساليب التي لا تحقّق فيها الاستجابات الجنسية المحددة وظائف فيزيولوجية وحسب ، بل ووظائف أخرى ، تتعلق بالاشارات والرموز .

وكما يشير « بيتش » فإنه لا يحصل التزاوج عند الحيوانات التي تعيش على شكل قطعان في فراغ اجتماعي ، إنّما في نظام محدد من العلاقات مع الأفراد الآخرين في القطيع . فتمنع الأنثى المسيطرة مثلاً في مجموعة الكلاب الذّكَر من التجامع مع أنثى أخرى . وإنّ القرد الذكر الذي يشغل مقاماً منخفضاً في سلم مقامات عشيرة القرود لا يتجرأ على الإقتراب من الأنثى في فترة النزو (الوداق) إذا وُجد بالقرب منه ذكر آخر ذو مقام أعلى ، ولكنه يجامعها حالما يبتعد هذا الأخير . ويتوقف العمر الذي تبدأ فيه الحيوانات بالتزاوج لا على بلوغها الجنسي فحسب ، بل وعلى التنظيم الجماعي المميز لكل نوع . فمثلاً تبدأ ذكور خنزير البحر والجرذان بالإقتران مع الإناث عندما تنتج خصيها حيوانات منوية (نطف) بالغة . وعلى العكس ، على ذكر قرد الرُّباح الفتي أن ينتظر إمكانية الجماع عدة سنوات بعد البلوغ الجنسي . فحتى تتقبّله الإناث يجب عليه أن يبلغ كامل قامته وأن يحصل كذلك على موقع متميّز في الجماعة .

ويحتكر عدد قليل من الذكور المسيطرين عملية الإقتران مع الإناث عند بعض الأنواع الحيوانية ، ويقمع هؤلاء كل المظاهر العدائية داخل المجموعة ويعاقبون المخلّين بالنظام معاً .

تنحصر الوظيفة الوراثية للذكر في ضوء المنطق العام لثنائية الشكل الجنسية بتلقيح أكبر عدد من الإناث ، مؤمناً بذلك انتقال مورثاته (جيناته) إلى الذرية (النسل) . وتؤمن الأنثى حماية الذرية والصفات الوراثية . وقد تأكدت هذه المعلومات من خلال معطيات بيولوجيا التوالد : يمتلك الذكر احتياطات غير محددة من النطف ،

في حين تكون كمية البويضات عند الأنثى محدودة العدد . وبالإضافة لذلك ، يحدّ من النشاط الجنسي لأنثى الثديات كونها يجب أن تحمل وتطعم وتعتني بالذرية . وربما لهذا السبب عملت الطبيعة على أن تقوم إناث أغلبية الثديات بالتجامع مع الذكور في فترات النزو (الوداق) فقط ، وفي الأوقات الأخرى تستجيب الإناث على اقتراب الذكور منها بشكل عدائي مما يجعل هذه القيود الموافقة تنسحب على الذكور أيضاً . ولكن الحياة الجنسية عند ذكور أغلب الأنواع الحيوانية أكثر اتساعاً وشدّة ، ويقوم ذكر واحد بتلقيح عدد كبير من الإناث (ولهذا علاقة مع « أثر كوليج » أيضاً) . ويتعزز هذا الأثر في التركيب « الأسروي » لبعض الأنواع بوجود نظام « الحريم » . . . الخ .

وتجدر الاشارة أيضاً إلى أنّ عدم التطابق في الأدوار الجنسية والسلوك الجنسي في عالم الحيوان لا يعني أنّ الذكر يسيطر بالضرورة على الأنثى . فيعود للذكر احتكار المداعبة ويتعين الإصطفاء الجنسي الداخلي للذكور كذلك بالمنافسة في القوة فيما بينهم . ومع هذا فالأنثى لا تصير ببساطة فريسة للمنتصر ، بل تختاره من بين عدة متقدمين ممكنين . وهنا لا تلعب المعطيات الجسدية للذكر دورها فقط ، بل وحيازته أو عدم حيازته على الموارد المادية أيضاً . ويلاحظ هذا خاصّةً عند الطيور . فمثلاً ، تختار أنثى طائر الوَصَعْ (troglodyte) لنفسها ذكراً لا حسب مظهره الخارجي أو جمال صوته بل بمقدار ما تكون رقعة الأرض التي يسيطر هو عليها جيدة وغنية والتي يتوقف عليها رخاء الذرية . وبكلمة أخرى ، إنه زواج « مصلحة » : أي يفضّل الذكر الذي يؤمن أفضل الظروف لنمو ذريته ، زيادة على فحولته .

إنّ نطاق أنماط السلوك الجنسي عند الحيوانات واسع للغاية : من التزاوج الفوضوي عن بعض الأنواع إلى الحياة الزوجية المديدة عند بعضها الآخر .

ومثلما يشير « بيتش » فإنّ لأشكال سلوك التزاوج مسوغات ما متعلقة بالنوع الحيواني دائماً ، ليس فقط لجهة استمرار النوع بل ومع أخذ الخصائص الأخرى للسلوك عند نوع معين بعين الإعتبار ، تلك الخصائص التي تتوقف على البيئة في نهاية المطاف .

وخاصةً الإنتقال من تعدد الأزواج الموجود عند أغلبية الأنواع إلى « أحادية الزواج » ، أي إلى الاتحاد الزوجي المستقر بين الذكر والأنثى ولو لفترة تربية فَقَسْ واحد . وهذا مشروط برأي « ي . ويلسون » بظروف خاصة ، عندما لا تستطيع الأنثى وحدها ، وبدون مساعدة الذكر ، رعاية الذرية (كقلة الموارد الغذائية وضرورة حماية المنطقة من الأعداء وعندما تطول الفترة التي يبقى خلالها الصغار عاجزين ويحتاجون للوصاية الأمومية الدائمة . . الخ) . وهناك حيث تقوم الأنثى بالوظائف الوالدية وحيث « الأبوة » لا وجود لها ، لا تبقى هناك حاجة إلى فترة تمهيدية طويلة للعناية بالصغار وبالتالي فلا تعود ثمة حاجة إلى اتحاد زوجي طويل ووثيق[1] . إلاّ أنه وكما أشير من قبل ، لا يرتبط السلوك الجنسي عند الحيوانات العليا وعند الإنسان بالوظيفة التوالدية فقط . وتكتسب بعض ردود الفعل الجنسية الفيزيولوجية عند الحيوانات وعند البشر كذلك طبيعةً شرطية ورمزية تمتلك بدورها أهمية أكثر عمومية تتعلق بالمباشرة والإتصال . ويحصل هذا مثلاً في حالات النعوظ وعرض القضيب الناعظ (المنتصب) . ويمثّل نعوظ القضيب رد فعلٍ فيزيولوجياً لا إرادياً ولا نوعياً . وهو يحدث عند الأفراد الفتيان ليس بسبب التهيج الجنسي فحسب بل وفي حالات الخوف والعدوانية والتوتّرات العاطفية بشكل عام . حتّى أن حديثي الولادة الذكور من « الرئيسات » ، ومنها الإنسان ، يقومون بحركات جسدية مميزة مبرزين من خلالها القضيب كما يحدث عند الجماع .

وتكتسب هذه الحركات الجسدية الإنعكاسية عند الذكور البالغين سمة الإشارة وتصير رموزاً . وهكذا مثلاً يعتبر إظهار القضيب الناعظ لذكر من قبل ذكر آخر عند

---

1 ـ إن الفروق بين الحيوانات من هذه الناحية كبيرة جداً : عند اللافقاريات ولكل 10 آلاف نوع « متعدد الزواج » يوجد أقل من نوع واحد « أحادي الزواج » ، في حين توجد « أحادية الزواج » الفصلية عند الطيور بنسبة 91٪ من كل الأنواع تقريباً .

قرود « سايميري » Saimiri التي رُوقبت من قبل « د . بلور » و « ب . ماكلين » ، يعتبر هذا إشارة عداء وتحدٍّ . فإذا لم يأخذ الذكر الذي توجه إليه هذه الإشارة وضعية الخضوع فإنه يتعرض للهجوم من قبل الأول . ويوجد في القطيع سلم تراتبي صارم حول من يستطيع (ولمن) إظهار قضيبه الناعظ . ويرى العلماء أنَّ هذه التراتبية هي أكثر المؤشرات لتحديد المنزلة والموقع عند بعض الحيوانات ، أكثر من أهمية التعاقب في تناول الطعام عند هذه الحيوانات . ويوجد مثل هذا النظام من الطقوس والحركات عند قرد « الرّباح » babouin . « الغوريلا » و « الشمبانزي » . وقد عرفت كذلك آلية انتقال هذا النظام من الإشارات والرموز : فطالما كان الحيوان صغيراً لا يلتفت أحد إلى قضيبه الناعظ ولكن ما أن يصل إلى مرحلة البلوغ الجنسي حتّى يعتبر الذكور البالغون هذا القضيب الناعظ كعلامة تحدٍّ فيقومون بضرب « المراهق » بكل قسوة ، وبالتدريج يدرك الحيوان أهمية رد الفعل الفيزيولوجي هذا ويقوم بالتالي بضبطه . وتستخدم القوة « المخيفة » للقضيب ضد الأعداء الخارجين كذلك . فقد وصف « فولفغانغ فيكلر » ما يطلق عليهم حراس قرود « الرّباح » و « القرود الخضراء » في إفريقيا : ففي الوقت الذي يتناول فيه القطيع طعامه أو يستريح ، يجلس هؤلاء الذكور ـ الحراس في أماكن مرئية مباعدين ما بين أرجلهم فيظهر بذلك القضيب الناعظ جزئياً . ويعتبر هذا الفعل تحذيراً للغرباء حتى لا يقوموا بإخافة القطيع . وإنَّ علاقة مثل هذا السلوك مع عبادة العضو التناسلي (القضيب) في الماضي ـ والتي سنتحدث عنها لاحقاً ـ هي علاقة صريحة .

إنَّ أحد عناصر هذه الحلقة من الثوابت الراسخة هو اقتران وضعية الجماع المذكرة بالوضعية المسيطرة ووضعية الجماع المؤنثة بوضعية الخضوع . وتتعلق هذه المسألة بشكل وثيق مع ظاهرة الجنوسة عند الحيوانات . فبنتيجة الكثير من مشاهدات الإقتران بين ذكرين (تأكد وجوده عند الكثير من الأنواع الحيوانية) أو بين أنثيين (وُصفت هذه الظاهرة عند 13 نوعاً تمثّل 5 صفوف مختلفة من الثديات) حاول العلماء تفسير هذا السلوك بمماثلته مع الجنوسة عند الإنسان . ولكن « بيتش » يشير إلى عدم واقعية مثل

هذا التماثل الذي لا يأخذ بعين الإعتبار أية اتصالات بالضبط تحدث عند ذلك بين الحيوانين من نفس الجنس ، وماذا يعنيه مثل هذا السلوك عند النوع الحيواني المحدد . ويشترط سلوك التزاوج عند كل الحيوانات ردود فعل متبادلة على سلوك الشريك . وهكذا فإن السلوك الجنسي الأنثوي ـ المنبه يثير ردود فعل مذكرة أكثر من المؤنثة وبالعكس . ولو كان مبدأ التكامل المتبادل للمنبه ورد الفعل الذي يفعل بشكل مستقل عن الجنس الوراثي للكائن ، لو كان مبدأ التكامل هذا هو المنظِّم الوحيد للتأثيرات الجنسية المتبادلة ، لكان سلوك جميع الحيوانات خنثوياً . ولكن هذا لا يحصل لأن الأفراد من كلا الجنسين تمتلك حساسية مختلفة لمثل هذه المنبِّهات : إذ تُثار ردود الفعل المتماثلة أي الردود المتوافقة مع الجنس البيولوجي بسهولة أكبر من ردود الفعل المتغايرة غير المتوافقة مع الجنس البيولوجي لهذه الحيوانات . وهكذا وعند مصادفة سلوك جنسي متغاير ، كأن تعلو الأنثى الذكر الخاضع ، لا بد من الإنتباه جيداً إلى المكان الذي تتم فيه هذه الأفعال والخصائص النوعية لهذا النوع من الحيوانات .

وكما يكتب عالم الحيوان الأمريكي « دينستون » فإنّ السلوك الجنوسي ليس له علاقة بالشذوذات الفيزيولوجية والهرمونية ويكون مشروطاً غالباً بعوامل سلوكية مكانية . وهنا توجد عدة حالات نموذجية :

1 . صعوبة التعرف على الجنس الحقيقي للشريك . فلا يمكن مثلاً لبعض الحيوانات مثل الضفادع والعلاجين (Bufo) أن تتعرَّف على الجنس الحقيقي للشريك من مسافة معينة . فيعلو الذكر النشيط جنسياً أي كائن حي متحرك من نوعه الحيواني ؛ ومن ثمَّ يتوقف كل شيء على رد فعل الشريك : فالأنثى تتقبل هذه الحالة ، أمّا الذكر فيبدأ بالمقاومة مجبراً « المغتصب » على الفرار . وقد تعلو الثيران والخيول في حالة التهيج مواد غير حية . وإنّ إعلاء ذكر لآخر غالباً ما يحصل عند غياب الأنثى والتي ما أن تظهر حتى يحوِّل الذكر انتباهه إليها .

2 . الحالات التي يكشف فيها السلوك الجنسي عن علاقات السيطرة والخضوع التراتبية في المجموعة . فقد يتم تقليد وضعيات الجماع ، أو يحدث إتصال جنسي حقيقي

يحقق الذكر أو الأنثى المسيطران فيه دوراً ذكورياً ، أمّا الشريك الأضعف فيأخذ وضعية الخضوع السلبية . وقد تأكّد وجود مثل هذا السلوك عند الكثير من الحيوانات كالغنم والماعز الجبلية والجراذين (العظاءة) والقرود والدلافين . . . الخ .

3 . الإتصال الجنسي كعنصر من عناصر النشاط اللّعبي عند صغار الحيوانات التي تقلّد الجماع بغض النظر عن جنس الشريك . وتحصل مثل هذه الاتصالات عند جميع الثديات تقريباً . وهناك وقائع معروفة أيضاً عن استمناء متبادل عند الحيوانات من الجنس نفسه (عند صغار الفيلة مثلاً) .

وتعتبر وضعية الخضوع الجنسية حركة مميزة يقصد بها المصالحة بعد النزاع عند القرود . وإن صغار الذكور الذين يكبرون سوية ويرتبطون مع بعضهم البعض بتعلّقات متبادلة غالباً ما تعلو بعضها البعض وتأخذ وضعية القبول الجنسية ، ولكن كما هو الحال في الألعاب الطفولية ، تكشف هذه الألعاب عن أحاسيس صداقية ولا تترافق بإيلاج حقيقي . وقد يحصل هذا أيضاً في حالة الغضب . فبتعبير « د . لافيك ـ غودول » « يمكن للذكر الشمبانزي في لحظة الانفعال الشديدة أن يضم إليه ذكراً آخر أو أن ينطرح عليه ، ولكن هذا الشكل من أشكال السلوك ليس له أية علاقة مع الجنوسة ، بل يكشف فقط عن الحاجة إلى الاتصال الجسدي مع القريب » .

ويمكن الحديث في حالات نادرة فقط عن السلوك الجنوسي بحد ذاته المشروط بتأنيث جنيني للذكور أو بشروط خاصة من تطور الكائن ، كما هو الحال عندما ينمو جروان معاً بمنأى عن الحيوانات الأخرى فيزداد تعلقهما ببعضهما البعض . ومن هنا لا يميل العلماء وخاصة علماء النفس لأن يروا في السلوك الخنثوي عند الحيوانات شكلاً مسبقاً أو مماثلاً للجنوسة عند البشر ، تلك الجنوسة التي يكمن في اساسها ميل شبقي فريد من نوعه . والخلاصة ، يمكن القول بأن علم الجنس البيولوجي يكشف عن مقدمات أساسية كثيرة وعن محتّمات ومكوّنات السلوك والدافع الجنسيين سواء على المستوى الفردي أو الزوجي أو الجماهيري . وبما أنّ السلوك الجنسي لا يتلخّص ببيولوجيا التوالد ، وأنه متعدد الوظائف والمستويات ، فلا يمكن لأي علم بيولوجي منفرد ولا حتّى

كل هذه العلوم مجتمعة أن تدّعي تفسيراً شاملاً له . وإنّ النظريات العلمية في مجال الإختصاصات الوراثية والفيزيولوجية العصبية والهرمونية النفسية وغيرها لا تنفي بعضها البعض ، ولا يمكن وضع الحدود الحقوقية لكل علم بشكل مسبق ؛ فهي تتوضّح وتتغيّر من خلال التطور الحي لهذا الفرع العلمي أو ذاك وعلى أساس المقارنة والتحليل النقدي لمعطيات العلوم المختلفة . ولا يمكن فهم العوامل الداخلية المنشأ للتطور والسلوك الجنسيين النفسيين بمنأى عن الظروف البيئية والمكانية . وإذا كان التفسير البيولوجي الخالص صحيحاً نسبياً عند الحيوانات فإنّه من غير الممكن تفسير الجنس البشري الواقع تحت نظام المراقبة الإجتماعية والثقافية ، لا يمكن تفسير هذا الجنس بصورة بيولوجية خالصة .

من إصداراتنا في علم النفس

من أعمال ثيودور رايك
ترجمة ثائر ديب

* الحب بين الشهوة والأنا
* الدافع الجنسي

من أعمال يونغ
ترجمة نهاد خياطة

* القوى الروحية وعلم النفس التحليلي
* الإله اليهودي : بحث في العلاقة بين الدين وعلم النفس
* علم النفس التحليلي

من أعمال اريش فروم
ترجمة د . صلاح حاتم

* الحكايات والأساطير والاحلام
* ما وراء الأوهام

من أعمال إ.س . كون
ترجمة د . منير شحود

* الجنس والثقافة
* الجنس من الأسطورة إلى العالم
* علم نفس الجنس

من أعمال غاي ليون بليفير
ترجمة عيسى سمعان

* التداوي بالتنويم المغناطيسي
* التخاطر بعد والاستبصار
* السحر والمعجزة

مؤلفات أخرى

* موسوعة تفسير الأحلام (3 أجزاء)
  ميلر - ترجمة هدى موسى
* معنى الموت والحياة
  د . ريتشارد شتاين باخ - ترجمة هدى موسى
* مدخل الى الطب النفسي وعلم النفس المرضي
  د . محمود هاشم الودرني
* أرقام الحب السرية
  ديفيد وجوليالين - ترجمة عايدة الجانودي

من إصداراتنا أيضاً في علم النفس والطب

* الجنس من الاسطورة إلى العلم
* علم نفس الجنس
* الحب بين الشهوة والأنا.
* الدافع الجنسي.
* الأمومة والطفولة
* الاضطرابات الفكية الصدغية والإطباق الوظيفي
* دليل العائلة الطبي
* ولد أم بنت؟ نوع الجنين.
* الإبر الصينية
* التداوي بوسائل بسيطة
* موسوعة تفسير الأحلام (3 أجزاء).
* التخاطر عن بعد والاستبصار.
* التداوي بالتنويم المغناطيسي.
* عالم النوم.


دار الحوار للنشر والتوزيع ـ سورية ـ اللاذقية
ص ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩